٦٢. ما دام الدين واحداً فلماذا تتعدد حركات التجديد وتكثر مناهج المصلحين؟

شرائع الإسلام لا يغني بعضها عن بعض، ومعالمه الكاملة تؤخذ من نصوصه وقواعده، وفروضه ونوافله في صورة منسقة على حسب الوضع الإلهي الذي أتت به..

غير أن المسلمين قد يسيئون إلى الموضوع أو الشكل وقد ينحرفون عن الأصل أو الفرع! . والعلل التي تصيبهم شتى..

وهناك عينان حمئتان تسيلان بالشرور في واقع المسلمين المعاصر: إحداهما من الاضطراب الداخلي في ثقافتنا وسياستنا، وهو اضطراب قديم مضت على جرائيمه قرون..

والأخرى من الاستعمار الخارجي الدائب على محو شخصيتنا وهدم قواعدنا وحوك المؤامرات في كل ميدان ضدنا..

ومن ثم تتغاير الأدواء التي يحاصرها المصلحون، ويبغون شفاء الأمة منها، واهتمام أحدهم بوضع ما وجده في بيئته لا يعني قلة اكتراثه بالأوضاع الأخرى.

إن الظروف التي يواجهها هي التي تحكم عليه بمنهج معين يتخصص فيه ويعرف به..

رفع محمد بن عبد الوهاب شعار التوحيد، وحق له أن يفعل! فقد وجد نفسه في بيئة تعبد القبور، وتطلب من موتاها ما لا يطلب إلا من الله سبحانه..

وقد رأيت بعيني من يقبلون الأعتاب ويتمسحون بالأبواب ويجأرون بدعاء فلان أو فلان، كي يفعل لهم كذا وكذا!! ما هذا الزيغ؟ ما الذي أنسى هؤلاء ربهم؟ وصرفهم عن النطق باسمه والتعلق به؟ وماذا يرجو العبيد من عبد مثلهم لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا؟ إنه لو كان حيا ما ملك لهم شيئًا، فكيف وهو ميت؟..

وتذكرت قوله تعالى:

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾[1].

وقوله:

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

إن هذا المسلك ينافي جملة وتفصيلاً عقيدة التوحيد! وإنكاره واجب كل مؤمن غيور..

بل إنني أذهب الى أبعد من هذا فأقول: كل إنسان له بشخص ما أو بشيء ما صلة تشبه من كل ناحية صلة الشرك القديم باللات والعزى فهو مثله، وحكمه حكمه..!.

لقد رأيت من يهاب بشرًا أكثر مما يهاب الله، ومن يرجوه أكثر مما يرجو الله! فكيف أعد هذا مؤمنا، وليس في قلبه اتجاه إلى الله! إن قلبه خال من ربه ملىء بغيره! فلماذا يكون خيرًا من عبد اللات أو عبد العزى؟.

الذي أراه أن عبادة القبور وعبادة القصور: أعني عبادة الأموات وعبادة الأحياء، آثار متشابهة وخواتيمها سوء!!.

إن رفع شعار التوحيد هنا إصلاح عظيم لعوج هائل، فهل معنى ذلك أن الإصلاح كله يقف عند رفع هذا الشعار؟ كلا هناك إصلاحات خلقية واجتماعية واقتصادية وسياسية لا يتم إلا بها!.

وقد توفر رجال آخرون على هذه الإصلاحات، وبذلوا فيها جهود مشكورة.

وفي مقدمة أولئك الرجال مقاومو الفساد السياسي، ورافضو الفرعونية والهرقلية في تاريخنا المديد، لقد قتل من هؤلاء المجاهدين من قتل وعذب من عذب، وبقيت حياتهم أسوة حسنة لرواد الخير وحماة الحق..

وفي عصرنا هذا أئمة استشهدوا وهم يحاربون الاستبداد السياسي. ويستنقذون حقوق الإنسان من براثن الجبابرة..

(١) الأحقاف: ٥. (٢) الشورى: ٩.

ولأشرح هنا موقفًا اضطرب فيه المتكلمون باسم الإسلام . .

إن الإسلام يرفض الانحراف عن الحاكم إذا كان لغرض خسيس! نعم هناك قوم ينظرون إلى مغانم الحكم باشتهاء ، فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون ! . .

ومعارضة هؤلاء للحاكم محقورة منكورة ، لا نكترث بها ، بل قد نشجبها . .

وهناك معارضون أغبياء ، يهدمون من أجل شىء تافه بنيانا قائمًا ، ولا يدرون شيئًا عن عواقب الأمور ، تأملت فى ثورة الخوارج على على بن أبى طالب ، إن قرار التحكيم الذى قبله لم يعجبهم ، فقاتلوه ؛ حتى قتلوه ، وانتهى تمردهم بقيام نظام ملكى أجهز عليهم دون رحمة!! . .

ماذا عليهم لو قبلوا القرار ، وبقوا مع أمير المؤمنين حتى استقر له الأمر؟ أليس ذلك خيرًا مما حدث؟ . .

وهناك معارضة تضعف الدولة أمام خصومها ، وقد تهدد وجودها ورسالتها ، إن هذه معارضة سيئة بلا ريب . .

وقد رفض الإسلام كل معارضة من هذا القبيل ، فهل معنى هذا إعطاء الحكم الفردى الأعمى ضمانات أبدية لبقائه والدفاع عنه؟ هل معنى ذلك أن الإسلام يسكت عن حكم يغتال الحقوق ، ويذل النفوس ، ويعطل الحدود ، ويستحل الحرمات؟ كلا . .

وأمامى الآن فتوى جبانة مضللة تلبس الحق بالباطل ، وتحرف الكلم عن مواضعه ، فتحت عنوان : هل تجوز منازعة الإمام الجائر؟ جاءت هذه الكلمات : « . . ذهبت طائفة من المعتزلة ، وعامة الخوارج إلى منازعة الإمام الجائر ، وأما أهل الحق - وهم أهل السنة والأثر - فقالوا : الصبر على طاعة الجائر أولى ، والأصول تشهد أن أعظم المكروهين أولاهما بالترك ، فقال عياض : وأحاديث مسلم كلها حجة على ذلك كقوله ﷺ «أطعهم ، وإن أخذوا مالك ، وضربوا ظهرك»!! . . وقال الطرطوشى فى سراجه : حديث أبى داود عظيم الموقع فى هذا الباب : قال رسول الله ﷺ : «يطلبون منكم مالا يجب عليكم ، فإذا سألوا ذلك ، فأعطوهم ولاتسبوهم» . . أى

ندفع لهم ما طلبوا من الظلم ، ولا تنازعهم ، ونكف ألسنتنا عنهم ، وقال ابن العربى : السلطان نائب رسول الله ﷺ (!) يجب له ما يجب لرسول الله من التعظيم والحرمة والطاعة! . ويزيد على النبى ﷺ (!) لابحرمة زائدة ، لكن لعلة حادثة بأوجه ، منها الصبر على أذاه ويدعى له عند فساده بصلاحه . .

وقيل لمالك : الرجل عنده علم بالسنة أيجادل عنها ؟ قال : يخبر بالسنة ، فإن سمع منه وإلا سكت ! قيل : فينصح السلطان ؟ قال : إن رجا أن يسمعه! وإلا فهو فى سعة» .

والواقع أن الجبن وحب الحياة ومهادنة الضلال تقطر من كلمات هذه الفتوى ، وما تربى إلا أذنابا للحاكمين ، وحوائى للمستبدين . .

وما سقتها إلا لأنها تصور الفكر السائد عند جمهور من المتدينين وهو الفكر الذى حاربه زعماء الإصلاح وأئمة العلم وبينوا بعده السحيق عن دين الله .

وما أدرى كيف يكتب هذه الكلمات من يعرف أن الدين النصيحة ، ومقاومة المنكر! وأن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر! وأن الأمة إذا هابت أن تقول للظالم ياظالم فقد ماتت موتا ماديًا وأدبيًا . .

هل قرأ مصدر هذه الفتوى قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾[1]؟ .

إننا لم نُنصر من عدة قرون ، لشيوع الظلم بين المسلمين ، وكثرة من يداهنون الجائرين ويأكلون على موائدهم! . .

فى بنى إسرائيل - وهم من هم - دعا القاضى «كاهان» رئيس الحكومة فمثل بين يديه ، ثم دعاه مرة أخرى وأنذره إن تأخر ، فجاء رئيس الحكومة طائعًا ، ثم صدر الحكم ضده وضد من معه . .

وقال الناس : يستحيل أن يقع هذا فى بلد عربى!! . . وأردفوا ساخرين : الماء

---

(١) هود : ١١٣ .

لايجرى إلى أعلى! . . قلت : وبركات السماء لاتنزل على الأدنى ، إن الاستبداد السياسى أعمى المسلمين عن حقائق الكتاب والسنة فغشيهم من الضياع ماغشيهم . .

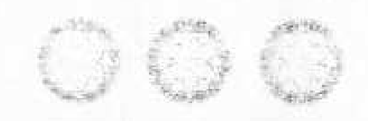
والإصلاح فى الميدان السياسى كالإصلاح فى الميدان العقائدى له رجاله المرموقون . .

وهناك الإصلاح فى الميدان الثقافى ، وغايته ـ كما أرى ـ إعادة الرشد إلى العقل الإسلامى الذى كاد يفقد وعيه بعد غيبوبة طالت وتراكمت آثارها ، وأمسى المسلمون معها لايعرفون رأسا من ذنب فى أفق المعرفة الدينية ، وأمسوا عالة على غيرهم فى علوم الكون والحياة . .

إن الله يبعث رسله من أنفس السلالات البشرية معدنا ، وأحدها ذكاء وفطنة ، والغريب فى الأمة الإسلامية أنها كادت تحصر علوم الدين بين الغوغاء والهمل ، وتكاد تلاوة القرآن الكريم تكون حرفة لأشباه المتسولين !! . فهل تجنى من ذلك إلا المر؟ . .

ولما كنت جنديا فى جيش الدعاة الإسلاميين فإنى مضاعف الحس بما يعانى الإسلام من بلبلة وغوض فى قضايا شديدة الوضوح ، ففى ميدان التربية فوضى آثارها متصوفون ، وفى ميدان التشريع فوضى آثارها متفقهون ، وفى ميدان التعليم فوضى آثارها قاصرون حتى لأكاد أقول : ما يبدأ الإصلاح إلا من هنا ! . .

وسواء بدأ الإصلاح ثقافياً أو سياسياً ، فإن المسار واحد لابد أن يلتقى على صعيده المخلصون وإن تباينت نقط الابتداء ، وستجنى الأمة منه أطيب الثمر!! . .



٦٣. ماذا عن أحاديث آخر الزمان، وهل لها دلالات معيَّنة؟

قبل أن ينتهى أجل الدنيا ، وتتلاشى الحياة فوق هذا الكوكب ستقع أشياء كثيرة مثيرة! . . بعضها يتصل بالأمة الإسلامية التى كلفت بهداية العالمين وفرطت فى هذا التكليف! وبعضها يمس الناس كلهم ، الذين خلقهم الله لعبادته فآثروا عبادة أنفسهم ، وجعلوا إلههم هواهم! . .

يظهر أن التقدم المادى سيبلغ الذروة ، وأن الغنى سيملأ كل يد ، وأن الأرض ـ قبل أن تسلم النزع الأخير ـ ستتخلى عما فى بطنها ! ، لمن تدخره؟ يوشك أن تصغر جنباتها ! فلزم بذهبها وفضتها لمن على ظهرها الآن ، ومن هنا سيتطاول الرعاع فى البنيان ، ويسكنون ناطحات السحاب ، وينعم العبيد بمستوى المعيشة التى عرفت للملوك! . .

ذلك ما نفهمه من قوله تعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ﴾(١) . .

وقوله :

﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ③ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ④ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾(٢) . .

أى استمعت لأمره ، وحق عليها أن تسمع ! . .

وذلك ما أشار إليه الحديث الشريف فى علامات الساعة « . . . ويفيض المال حتى لايقبله أحد!» وقوله عليه الصلاة والسلام فى هذه الأمارات : « . . أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان» وفى رواية « . . إذا كان الحفاة العراة رءوس الناس» .

وقد وهل البعض فى فهم هذه الكلمات ، وظنوا الإسلام يكره رياسة الفقراء! وهذا خطأ فاحش ، وهل كان العرب حملة الحضارة الإسلامية إلا فقراء يرعون الغنم؟ . .

(١) يونس : ٢٤ . (٢) الانشقاق : ٣ ـ ٥ .



إن المقصود تقدم السفلة بالوسائل الهابطة ، ووصول من لا كفاية له إلى مناصب لايستحقها ، وهذا مانفهمه من الأحاديث الأخرى مثل قوله عليه الصلاة والسلام : «لاتقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع ابن لكع» أى اللئام الأقذار .

وفى رواية : «لاتقوم الساعة حتى يرث الدنيا شراركم» وفى أخرى «لاتقوم الساعة على أحد يقول الله الله» .

والواقع أن فساد الحكم شر أنواع الفساد كلها ، فإنه يتيح للأوغاد أن يدمروا الأخلاق والأمجاد وأن يرخصوا الدماء والأعراض .

ويبدو أن الأمة الإسلامية سيشيع فيها هذا البلاء أكثر من غيرها ، فقد صح ، عن الرسول الكريم أنه ﷺ كان يحدث القوم جاءه رجل فقال : متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ فى حديثه حتى إذا قضاه قال : «أين السائل؟ قال : هاأنذا يارسول الله! قال : إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة! قال : وكيف إضاعتها؟ قال : إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»!! .

ومع أن الخيانات الاجتماعية والسياسية ضاربة الجذور فى تاريخنا إلا أنها ستزداد فشوا وعتوا فى الأعصار الأخيرة .

هناك حاكم مات أبوه وهو يشتهى ركوب الحمار! مكن له القدر فأصبح يتنقل بالطائرة ، ولم يكشف بذلك حتى جعل الطائرة تنقل الحلوى لأولاده وأحفاده ، من مال الشعب! ما أتعس الإسلام بأولئك الحكام!! . .

وقد وردت أحداث بين يدى الساعة نحب أن نشرح بعضها! من ذلك نزول عيسى بن مريم وعيسى بشر كريم ، ونحن المسلمين نرفض أن يكون إلها أو ابن إله ، وكتابنا يقول فيه :

﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾(١) .

ثم يقول :

﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾(٢) .

وهذا تلميح إلى نزول عيسى قبيل الساعة ، بيد أن السنة جاء بها تصريح واضح قال رسول الله ﷺ : «والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية» . .

ولماذا ينزل؟ ينزل ليكذب بنفسه من زعموه إلها ، وهم جماهير غفيرة! .

(١) الزخرف : ٥٩ . (٢) الزخرف : ٦١ .

وفى حديث آخر أنه سينزل بين المسلمين ـ وهم أتباعه الحقيقيون ـ فيقاتل معهم الصليبيين ، حتى يهزمهم ، ويسقط دولتهم ، عن جابر بن عبدالله ، قال رسول الله ﷺ : «لاتزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة ، فينزل عيسى بن مريم ، فيقول له أميرهم : تعال صل بنا ـ يعرض عليه إمامة المسلمين ـ فيقول عيسى : لا ، إن بعضكم على بعض أمراء ، تكرمة الله تعالى لهذه الأمة» .

والحديث يشير إلى أن الإسلام خاتم الرسالات ، وأن عيسى لن يجىء بجديد! . .

وظاهر القرآن أن عيسى مات ، والقول بأنه حى فى مكان ما أو فى السماء لا دليل له ، ولا يمنع ذلك من أن يحييه الله مرة أخرى كما أحيا عبيدًا آخرين ، ليقوموا بعمل له خطر! وهذا رأى أهل الظاهر عندنا ، وهو عندى أرجح من القول بأنه حى الآن . .

ومن الأحداث المروية بين يدى الساعة ظهور الدجال الأكبر الذى يختم طائفة من الدجالين الكذبة أدعياء النبوة والمهدية الذين يزعمون أن لهم بالله علاقة ، وأنهم يتحدثون بوحى منه! . وفى الحديث : «لاتقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريباً من ثلاثين ، كلهم يزعم أنه رسول الله» . .

والدجال الأخير رجل من اليهود أوتى علما وقدرة ، وربما ادعى الألوهية ، وليس ذلك غريبًا فإن المدعو بالبهاء ، زعم أن الله حل فيه ، وأنه مجلى الألوهية الهادية ، وأن إنكار ذلك نوع من الكفر الذى حذر منه القرآن فى الآية الكريمة :

﴿ . . . وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾(١) .

فالتفريق عدم الإيمان بالحلول (!) .

وفى السنة تحذير من الدجال ومخرقته ، وتخويف من أتباعه ، ولفت إلى أنه سيكون شخصًا أعور مقبوح الهيئة . .

وقد وردت أحاديث كثيرة فى فتنة هذا الدجال تحتاج إلى بحث خاص ، والذى يهمنى هنا حديث : «إنما أخاف على أمتى الأئمة المضلين» . . وفيه «...أنه سيكون فى أمتى ثلاثون كذابا كلهم يدعى أنه نبى ، وأنا خاتم النبيين لا نبى بعدى» .

العدد للتكثير ، والذين ادعوا أنهم أصحاب وحى كى يقودوا الناس باسم الدين جم غفير وليس بعد خاتم المرسلين وحى! ، إن المحتالين باسم الدين أكثر من المحتالين طلبا للدنيا ، ويغلب أن يلتف بهم أتباع واهمون مسحورون ينسبون لهم خوارق عادات ، ويطلبون لهم طاعة عمياء وديننا قوامه العقل ومعجزته إنسانية خالدة .

(١) النساء : ١٥٠ .

والأئمة المضلون هم الخلفاء الظلمة والملوك المستبدون ، وهؤلاء منذ ظهروا بدأ خط الانحراف فى تاريخنا فانفصل العلم عن الحكم أو انفصلت السياسة عن الثقافة .

ثم انشعبت المعرفة الدينية شعبتين بعد ماتوحدت زمانا ، فإذا متصوفون لا فقه لهم ، وفقهاء لا قلوب لهم! ، ثم مضى الانحراف إلى مداه فإذا المتصوفة يفقدون الإخلاص والتجرد ويمسون أصحاب مراسم وشيوخ طرق ، وإذا الفقهاء يخلفون بعدهم مقلدين لا يذوقون حكمة نص ، ولا يحسنون الاجتهاد لنازلة! .

وصحب هؤلاء وأولئك قصور شائن فى علوم الحياة وشئون الدنيا فكان لابد أن تركع الأمة أمام أعدائها بعد ما انهارت مادياً وأدبياً ! وأذكر أن صديقًا قال لى : إن الأوربيين والأمريكيين يكرهون اليهود ، ولكنهم يحتقرون العرب!! . وماذا لدينا يستدعى الاحترام . .

فى تلك الحال يذكر حديث عن رسول الله ﷺ **«يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها** . فقال قائل : أمن قلة نحن يومئذ؟ قال : **لا، بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور أعدائكم المهابة منكم وليقذفن فى قلوبكم الوهن!** ، قيل : وما الوهن؟ قال : **حب الدنيا وكراهية الموت»** .

ومن علامات الساعة طلوع الشمس من مغربها قال رسول الله ﷺ : **«لاتقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، وذلك حين لاينفع نفساً إيمانها إن لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً»** . .

إن الرتابة التى يتسم بها النظام الكونى خدعت البله فلم يبصروا الرب المدبر ، والسيد المشرف ، فأخذوا يقولون : هذه طبيعة الأمور! وكان ينبغى أن تكون لهم قلوب يفقهون بها .

فلما زالت الرتابة المألوفة صاحوا دهشين : عرفنا صاحب هذا النظام المحكم!! . . وهيهات هيهات! . إنه لاقيمة للامتحان بعد ما انكشفت الأسئلة! . .

بعد هذا الانقلاب الفلكى لايقبل من كافر إيمان ، ولا من فاسد صلاح! . .

وطلوع الشمس من مغربها أو من مشرقها سواء لدى القدرة العليا ، فإن الكواكب المتهادية فى فضائها ، تتحرك وفق مشيئة خالقها ومسخرها ، بإذنه تنطلق ، وبمشيئته تنطفئ يوم يسلبها نورها وحرارتها .

متى ذلك؟ عند قيام الساعة ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ① وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾[1] .

(1) التكوير : ١ ، ٢ .

٦٤. هل ينبغى فى عصر تفجير الذرة وغزو الفضاء أن نقدم الولاء للإنسانية ونؤخر الولاء للدين؟..

يظن كثير من الناس أن هذا العصر ليس عصر الأديان ، بما توحى به كلمة دين من تعصب خاص ، وأفق محدود ، ورباط بالماضى ، وتجهم لما لم نألف . .!!

ويقولون : هذا عصر الإنسانية العامة ، ذات المعالم المطلقة والانفتاح على الآخرين .

إنه عصر هيئة الأمم ، والميثاق العالمى لحقوق الإنسان ، والدعوات التى تتسامى على الأجناس والألوان والقوميات والأديان! . .

والواقع أن التفكير السائد هو أن القرن الخامس عشر للهجرة أو العشرين للميلاد هو القرن الذى انسحبت فيه الأديان ، وتركت الزمام لمبادئ أخرى تقود العالم ، وعلى المتدينين الاكتفاء باللقاء العاطفى فى معابدهم وعدم شغل الناس بقضاياهم القديمة .

هذا الكلام خدعة كبرى لا أصل لها ، بل هو زيف من ألفه إلى يائه ، وأستطيع أن أكرر ماقلته فى مناسبات شتى إن هذا العصر هو العصر الذهبى للأديان كلها ماعدا الإسلام . .

وأخشى أن يكون ترديده من مكر الطوائف الأخرى بنا ، حتى تبنى وجودها على رفاتنا ، وتستطيع أن تملأ الفراغ الحادث بعد ذهابنا . .

إن هذه الأيام العجيبة تشهد انطلاق أديان كانت مقيدة! وعقائد كانت جامدة ، بل لقد تحرك مزهوًا من كان أمله أن يدفع العار عن نفسه ، وحسبه أن يظفر بحق الحياة المجردة! .

لننظر إلى اليهودية التى سلخت من عمر الزمان فوق ثلاثين قرنًا ، هل وجدت أزهى من هذا العصر؟ إن العالم أجمع يستمع إليها ، وينصت لأسلوبها فى عرض الأمور! . .

هل استطاعت اليهودية خلال عشرة قرون أو عشرين قرنًا أن تجمع فلولها من أقطار الأرض ، وأن تقيم لها دولة على أنقاضنا؟ وأن ترفض بصلف رجاء الراجحين أن تسمح للعرب بإقامة دويلة إلى جوارها؟ . .

لقد انتهت قصة اليهودى التائه ، وبدأت قصة العربى التائه . .

بدأت مأساة لاجئين ، جمهرتهم الكبرى من المسلمين ، يطاردون من قطر إلى قطر ؛ لأن «هويتهم» سرقت منهم تحت الشمس ، ومنحتها هيئة الأمم لأبناء التوراة ، ورأت ذلك هو الإنسانية الصحيحة . .

أفنلك ما نكلف بقبوله وإلا صرنا مسلمين متعصبين؟ نعمل ضد الإنسانية! ألا قبحًا لهذا المنطق . .

وكانت النصرانية حتى مطالع هذا العصر تجر وراءها تركة مثقلة من الخصام الدامى بين العلم والدين ، لقد قتلت العلماء وعوقت التقدم العلمى ، ومشت على أشلاء الضحايا من طلائع الفكر الإنسانى . . ورأت دول الغرب نفسها أن تقلم أظفارها ، وتسمح لها بالعيش بعيدًا عن كل نشاط ذى بال!! .

وبغية تغير الوضع كله ، وأصبحت النصرانية سيدة الموقف وانعقد صلح وارف الظلال بينها وبين شتى الحكومات فى أوربا وأمريكا . .

ورأينا «بابا روما» ينطلق من قلعته فى «الفاتيكان» إلى مشارق الأرض ومغاربها ، ليجد الألوف المحشودة تنتظره ، ورؤساء الدول فى شرف استقباله ، ومن مرت بهم طائرته أرسلوا إليه فى الجو تحيات عطرة! . .

فإذا خطب فى «نيجيريا» وأكثر من تسعة أعشارها مسلم تناول بالضيق قضية تعدد الزوجات ، وأومأ إلى منافاتها الأخلاق (!) وهو يعرف أن العالم الغربى غارق فى الخنا إلى أذنيه .

إن مهاجمة الإسلام هدف إنسانى . . وفى سبيل ذلك رأينا تعاونا وثيقا منظما بين «الكاثوليك» الإنجيليين و «الأرثوذكس» علام يتعاونون؟ على إخماد الصحوة الإسلامية التى لاحت فى أقطار كثيرة!! . .

وفى سبيل تلك الغاية الإنسانية اتسع نطاق التعاون ليشمل اليهود ! . .

وتذكرت قول «تشرشل» لما حالف الروس الشيوعيين ضد الألمان المسيحيين : إننى مستعد للتحالف مع الشيطان ضد عدوى! . .

ورجعت إلى تاريخ البعثات التنصيرية فقرأت هذه المقتطفات للمطران «نيل» وهو يتحدث عن جهود الصليبيين فى العصور الوسطى للتعاون مع المغول على ضرب الإسلام قال : « . . . عندما سمع العالم الغربى للمرة الأولى عن غزو التتار للعالم

الإسلامى ، استقبل هذه الأنباء بانشراح ؛ لأنه إذا استطاع النصارى التحالف مع القوى المغولية على ضرب الإسلام من الخلف أمكن الخلاص بصورة نهائية من خطر المسلمين ، وقد يكون من الأفضل أن يدمر هذان العدوان بعضهما الآخر ، فستصبح الكنيسة بعدئذ الخيار الأفضل ، وذلك ما جعل المطران «وينشستر» يقول للملك هنرى الثالث ملك إنجلترا ما نصه «ليدمر هؤلاء الكلاب بعضهم بعضاً ، وليصف كلاهما الآخر! وعندها سنرى الكنيسة الكاثوليكية العالمية تتأسس على أطلالهم» . .

يقول محرر مجلة الأمة تعليقا على هذه النصوص : «إن بعض السذج من المسلمين يعجبون للتواطؤ القائم بين الشيوعية والصليبية على ضرب الإسلام ، والذى ظهرت آثاره فى زنجبار وتنجانيقا والسودان والحبشة وأوغندا وفلسطين . . إلخ لامكان للعجب ، فالتاريخ يعيد نفسه وأحداث العصر تماثل كل المماثلة ما نقلناه آنفا على لسان المطران نيل . . لم يتغير إلا الوقت ، أما الحق الكامن ، والجهل المتعصب ، والنفوس الملتوية والميول العدوانية فهى هى مازالت فى القرن العشرين كما كانت فى القرن العاشر ، وما قبله وما بعده» . .

ولنترك جيراننا أهل الكتاب! ولننظر بعيدًا إلى ديار البوذية والهندوكية ، إن الديانتين الوثنيتين فى عصرهما الذهبى الآن مابلغتا هذه الذروة يوما ما . . !! .

يعرف دارسو الملل والنحل أن بوذا لم يرفع بصره يومًا إلى السماء لا داعيًا ولا خاشيا ؛ لأنه لا يؤمن إلا بالأرض وما عليها وقد وضع لأتباعه تعاليم حسنة ليعيشوا بها ! .

فلما مات جعله هؤلاء الأتباع إلها ، وجعلوا تعاليمه توراة وإنجيلا وقرآنا ، وأصبحت البوذية دينا! ما أغرب نقائض البشر !

ورأيت القباب الذاهبة فى الفضاء تحتها تماثيل لبوذا جالسا يفكر! والألوف من العابدين يزدلفون حوله ، إن الدول الغربية أعانت هؤلاء على مطاردة الإسلام وطى راياته عن أقطار كثيرة ، فالوثنية ـ من الناحية الإنسانية ـ أفضل من الإسلام!! . .

أما الهنادك فهوايتهم المفضلة مطاردة المسلمين حيث كانوا! إنهم يقدسون الأبقار والقردة ، بل الجراثيم! الشىء الذى يستحق الموت هم المسلمون ، وأقرأ الآن وأنا أكتب هذه السطور ـ كيف قتل أكثر من خمسة آلاف طفل وامرأة رميا بالسهام

أو ضربًا بالفئوس أو حرقًا بالنيران ، مما جعل مئات الألوف تفر حذر الموت إلى جبال «الهيملايا» ، ذلك كله فى ولاية واحدة ، ولاية «آسام» .

تلك هى الإنسانية فى عصرنا الحديث! إن رنين الكلمة المزيفة يقرع الآذان ، ويثير الغثيان!! . .

إننى باسم الإسلام وأمته على استعداد كامل للحفاوة بهذه الكلمة يوم تكون عنوانًا له موضوع ، وعندما أفعل ذلك فأنا أوفى لدينى ولا أخرج عليه ، بل أعد من الولاء لدينى أن أحسِّن الحسن ، وأقبِّح القبيح ، وأدفع عن المظلوم ، وأنشر الرحمة ، وأقيم العدل ، وأرق للحيوان بله الإنسان أيا كان لونه ودينه!! .

إننى أعرف من دينى أن الله يقبل دعوة المظلوم ولو كانت من كافر! . .

وأعرف من دينى أن حلفا شريفًا تم فى الجاهلية الأولى ، قال النبى الكريم عنه : «**لو دعيت به فى إسلام لأجبت**»!! . . إنه حلف الفضول ، للحفاظ على الحقوق ونجدة المستضعفين . .

وعلى ضوء ذلك أعلن احترامى الشديد للجنة العفو الدولية التى تقف بجهدها ضد العدوان ، وتكشف أصحابه ، وتؤلب عليهم ذوى الضمائر الحية فى هذه الدنيا . .

وأؤيد من أعماقى حسن معاملة الأسرى وأعلن الحرب على الرق الفردى والجماعى وعلى التفرقة العنصرية بجميع صورها .

معنى أننى مسلم أننى أعتنق دينا طبيعيًا ، يحترم الفطرة البشرية ونوازعها الطيبة ويحترم العقل الإنسانى وأحكامه المنطقية ، ويتوقع الخطأ ولا يحكم على مقترفه بالموت ، بل يمهد له طريق التوبة ويفتح أمامه أبواب الرجاء ، ويلحظ حكم القدر فى اختلاف الأديان فيدعو إلى رأيه بالحكمة والموعظة الحسنة ويرفض الفتنة والقسوة . .

تلك هى الإنسانية التى نحبها ونراها امتدادًا لرسالة الله ، ومرادفًا للإسلام . .



٦٥. أصحيح أن الفتوح الإسلامية تعود إلى عوامل قومية أكثر مما تعود إلى عوامل اقتصادية أو دينية؟

لاريب أن الفتوح الإسلامية كانت شيئًا خارقًا للعادات ، ولو أنك سألت أعرابيًا قبل بعثة محمد أو إبَّانها : هل تفكرون فى غزو فارس أو الروم؟ تظن بك مسا !! .

إن هذا لايريد أحلام النيام! إنه كالهبوط إلى القمر بغير وسائل علمية!! . .

لكن الواقع الذى لايمكن إنكاره أن العرب ـ بعد ما أسلموا ـ هزموا الفرس والروم معًا فى جبهتين متعاصرتين ، واحتلوا بلادهم فى وقت واحد ! . .

إن القبائل الهائمة على وجهها فى صحراء الجزيرة قامت لها فجأة دولة تحت علم التوحيد ، لم تسلخ من عمرها بضع سنين بعد وفاة صاحب الرسالة حتى شرعت تصارع الدولتين العملاقتين ، وتُلحق بهما هزائم أبدية! . .

ماذا حدث فى دنيا الناس؟ إنها معجزة ما عرف خبرها إلا محمد وحده ، الذى أقسم بربه أن تنفق كنوزها فى سبيل الله قال عليه الصلاة والسلام : «**إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، فو الذى نفسى بيده لتنفقن كنوزهما فى سبيل الله تعالى**»!! . .

إن الإنسان الملهم العابد المجاهد هو صاحب هذا التغيير الحاسم فى تاريخ البشر ، لقد جعل القمم سفوحا والسفوح قممًا ، وبين أن الهمل يستطيعون الوصول إلى أعلى السلم بالعلم والتربية ، وأن الملوك يتحولون إلى عبيد بالترف والمعصية .

ولقد ثبت لكل ذى بصيرة أن محمدًا وحده هو الإنسان الأول أو القمة الأولى فى تاريخ الحياة من أزلها إلى أبدها . .

غير أن أغلب المستشرقين أبى الاعتراف بهذه الحقيقة ورأى أن يلتمس تفسيرًا لما حدث فقال : إن جفافًا سيئًا حل بجزيرة العرب على عهد البعثة المحمدية وعقبها جعل العرب يتحولون إلى جيرانهم زرافات ووحدانا يطلبون القوت ، ويفرون من المجاعة إلى أرض الهلال الخصيب فى سوريا والعراق! .

ويبدو أن خبر هذه المجاعة العربية نمى إلى المستشرقين وحدهم فلم يذكره أحد من الناس!.

ولنفرض جدلا أن مجاعة وقعت! هل إذا حل قحط بسويسرا أغارت عسكرياً على روسيا والولايات المتحدة ابتغاء القوت؟ لماذا قلت: سويسرا؟ هل إذا حل قحط بالكونغو ناوش الدولتين العظميين فى العالم، واحتل أرضهما سعيا وراء الرزق؟ هذا تفكير سكارى!.

ثم تذكرت أن فى كتبنا القديمة كلاما قد يكون من وراء هذا الهذيان، قرأت فى وصف إحدى المعارك بفارس أن المسلمين بعد انتصارهم استولوا على غنائم كثيرة من بينها فطائر ورقائق، فقال أحد الجنود: لو لم نقاتلهم على هذا الدين لقاتلناهم على هذا الرقاق!!..

قلت ساعتها: هذه نكتة مثل ما يصدر عنا نحن المصريين من دعابات! ولم أكن أدرى أن الأب «لا مانس» سيتخذ من هذا الكلام دليلا على أن للفتح العربى أسبابًا اقتصادية!!..

ومثل ذلك ما قاله «رستم» للمغيرة بن شعبة فى أثناء المفاوضات بين الفرس والعرب: قد علمت أنه لم يحملكم على ما أنتم فيه إلا ضيق المعاش وشدة الجهد، ونحن نعطيكم ماتشبعون به، ونصرفكم ببعض ماتحبون، وهذا كلام هزل! فإن رستم يعلم أن كتابًا جاء سيده كسرى من بضع سنين يدعوه إلى الإسلام، مرسله هو محمد عليه الصلاة والسلام وأن أتباع هذا النبى جاءوا اليوم بالدعوة ذاتها، وهم مستعدون للعودة إلى بلادهم إذا ما اقتنع الفرس بها.

فما مكان هذا الطعام المعروض؟ ومن الذى طلبه؟ ومن الذى يقبله؟ إنه كلام هزل!.

وكتب التاريخ لدينا تروى الغث والسمين، وقد نبه الطبرى قراءه إلى ذلك، حتى لايخدعوا بكل ما يرويه، ولو صدقنا جدلا ماحكاه الطبرى - بسند تافه - أن خالد بن الوليد قال لرجاله: ألا ترون إلى الطعام كرفع التراب؟ بالله لو لم يلزمنا الجهاد فى الله والدعاء إلى الله عز وجل، ولو لم يكن إلا المعاش لكان الرأى أن نقارع على هذا الريف حتى تكون أولى به! ونولى الجوع والإقلال من تولاه ممن أثاقل عما أنتم فيه!!.

إن هذا الكلام - لو صح - لكان ضربًا من المزاح أو لفت النظر إلى مافى أيدى الكافرين من نعماء ليسوا أهلا لها؛ لأنهم لم يشكروا الله عليها، ولم يؤدوا حقه فيها..

ويستحيل أخذ العبارة على ظاهرها القريب؛ لأن الأدلة قائمة أمام عيون المؤمنين على أن القتال طلبا للغنيمة جريمة، وأن المجرمين لايفتح لهم ولا يفتح عليهم، فعن أبى هريرة أن رجلا قال: يارسول الله، رجل يريد الجهاد فى سبيل الله وهو يبتغى عرضًا من الدنيا! فقال: «لا أجر له! فأعاد عليه ثلاثا، كل ذلك يقول: لا أجر له»..

وروى مسلم فى صحيحه خبر أول ثلاثة يدخلون النار يوم القيامة، وبعد أن ذكر القارئ المرائى والمتصدق قال: «..ثم يؤتى بالذى قتل فى سبيل الله، فيقول الله له: فبماذا قتلت؟ فيقول: أمرت بالجهاد فى سبيلك فقاتلت حتى قتلت! فيقول الله تعالى له كذبت وتقول له الملائكة كذبت! يقول الله له: بل أردت أن يقال: فلان جرىء! وقد قيل ذلك! ثم ضرب رسول الله على ركبة أبى هريرة فقال: يا أباهريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة!..»

قال شفى الأصبحى: فأخبرت بهذا الحديث معاوية، فبكى بكاء شديدًا حتى ظن أنه هالك! وقال: قد فعل بهؤلاء ذلك فكيف بمن بقى من الناس؟ وتلا قوله تعالى:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

إن الصحابة جميعًا، والتابعين معهم، يعلمون أن القتال طلبا لمغنم دنيوى مهلكة للدين، ومن ثم خرجوا للجهاد، ونفوسهم خالية من طلب الدنيا، مقبلة على طلب الآخرة، وذاك سر فلاحهم ونصرهم على عدوهم!.

هناك عقد فادح الثمن بين المؤمنين وربهم ولكنه جليل العوض، يقدمون حياتهم له ويمنحهم الجنة فى مقابله، ومن طلب عظيمًا خاطر بعظيمته ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ..﴾[2].

إن الإيمان حول أصحابه إلى زلازل وبراكين أتت على الشرك من القواعد! فإذا قيل: ياخيل الله اركبى، وإلى الله ارغبى.. رأيت الرجال يتسابقون إلى الموت موقنين بأن بعده الجنة..

(١) هود: ١٥ - ١٦.　(٢) التوبة: ١١١.

وقد يكون أحدهم شيخًا كبيرًا أثقلت جسمه السنون ، فإذا سمع النداء تحامل على نفسه ليؤدى واجبه ، فيقول له بنوه إن الله عذرك! ونحن نجاهد عنك! فيقول : كيف عذرنى وهو القائل :

﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾(١) .

إن الشاب والشيخ ، المثقل والمخفف ، سواء فى ضرورة الجهاد! الحق أن الوثنيات الدينية والسياسية والاقتصادية لم تجد فؤادا أشجع ولا ذراعًا أشد ، من فؤاد محمد وذراعه .

لقد حشد ضدها الجموع ، ورمى طواغيتها بالأبطال ، وأخذ يقول لهم : **«من قاتل فى سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة»..«رباط يوم فى سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل»..«ما من مكلوم ـ جريح ـ يكلم فى سبيل الله إلا جاء ، يوم القيامة وكلمه ـ جرحه ـ يدمى ، اللون لون الدم والريح ريح المسك»..«لا يجتمع كافر وقاتله فى النار أبدا! لا يجتمع فى جوف عبد غبار فى سبيل الله وفيح جهنم ولا يجتمع فى قلب عبد الإيمان والحسد»..«سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله»..«ألا أخبركم بخير الناس؟ وشر الناس؟ إن من خير الناس رجلاً عمل فى سبيل الله ، على ظهر فرسه أو ظهر بعيره ، حتى يأتيه الموت ، وأن من شر الناس رجلاً يقرأ كتاب الله لا يرعوى بشىء منه»!** .

يقول المغيرة بن شعبة للفرس : أخبرنا نبينا ﷺ عن رسالة ربنا : **«أنه من قتل منا صار إلى الجنة! فنحن أحب فى الموت منكم فى الحياة»!** . .

بهذه التوجيهات وتلك المشاعر بدأ الهجوم على قوى الكفر والعدوان ، فإذا الدول الكبرى التى غالبت الزمن وطاولت التاريخ تترنح وتتراجع ثم تهوى!! . .

وجماعة المستشرقين دون مستوى الوعى بهذه الحقائق ، فهم ما عرفوا ـ فى ظل الاستعمار إلا حروب النهب والسلب ، والأحقاد والأطماع ، ولذلك يتحدثون عن محمد وصحبه حديث السكارى عن الملأ الأعلى . .

ثم ظهر بدع مضحك يقول للناس : إن العروبة من وراء الفتوح العظيمة فى فارس والروم! أى عروبة؟ كان العرب غربى فارس أذنابا لكسرى واسمهم المناذرة ، وكانوا جنوبى الروم أذنابا لقيصر واسمهم الغساسنة ، وكانوا فى قلب الجزيرة يسمعون عن الروم والفرس كما يسمع الحمالون عن ركاب الدرجة الممتازة فى السكك الحديدية!! إن العرب قبل الإسلام ومن غير الإسلام ما كانوا شيئًا ، ولن يكونوا شيئًا وسنزيد ذلك بيانا فى الإجابة التالية .

(١) التوبة : ٤١ .

٦٦ . يدرس الآن فى بعض الجامعات أن القومية العربية هى العامل الأول فى نجاح الفتح الإسلامى وهزيمة الفرس والروم فما مدى الصحة فى هذا القول؟

هذا الكلام أقرب إلى الهزل منه إلى الجد ، بل يمكن وصفه بأنه جريمة علمية ومحاولة لتزوير التاريخ وقلب حقائقه .

وقد استمعنا إلى أوصاف محدودة توجه النفوس إلى هذا الغرض ، وتجاوزناها لتفاهتها ، ثم تبين لنا أن هناك خطة مرسومة متعمدة للنيل من الإسلام وتاريخه!! . .

من ذلك وصف السلطان المظفر قاهر التتار قطز بأنه بطل القومية العربية (!) . .

والرجل ما عرف قط هذه الكلمة ، ولا خطرت له ببال ، فهو ـ باسم الإسلام وحده ـ قاد المسلمين من عرب وترك لمواجهة التتار ووقف تقدمهم إلى مصر ، وكان حماسه لدينه وحبه له بارزين فى سيرته ، فلما رأى الجيش المصرى يضطرب عند الاصطدام بالعدو صرخ صرخته المشهورة ، واإسلاماه! فكانت مفتاح النصر ، وسر انكسار التتار للمرة الأولى فى تاريخهم العسكرى . .

ومعروف أنه من تركستان لا من جزيرة العرب ومع ذلك فقد كتب على مسجده أنه بطل القومية العربية !! . .

ومثل ذلك الكذب وصف صلاح الدين الأيوبى بأنه بطل العروبة! والرجل مسلم كردى الأصل دعاه دينه وإخلاصه لله ورسوله إلى محاربة الصليبيين حتى أجلاهم عن بيت المقدس وأعاده للعرب المطرودين منه وذلك باسم الإسلام الذى لا يعرف غيره! . .

والواقع أن فكرة القومية عرفتها أوربا فى القرنين الأخيرين فقط ، ثم نقلها الاستعمار الثقافى إلى بلادنا ليطيح بوحدتها الكبرى ، فالقول بأن العرب عرفوها وقاتلوا باسمها الروم والفرس ضرب من الهراء الموغل فى السخف . .

ونذكر هنا بعض الحقائق التاريخية أن العرب المتنصرين سواء من كان منهم تابعا للروم ، أو الفرس ، أو قاطنا شمالى جزيرة العرب ، هؤلاء كانوا من أسوأ الناس معاملة للمسلمين ، وتحاملا عليهم . .

فرسل النبى ﷺ إلى الملوك والأمراء ، عادوا جميعا إلى المدينة سالمين ، فلم يقتل إلا الرجل الذى بعث إلى الأمير الغسانى المتنظر شرحبيل بن عمرو! ، وهناك أمير عربى نصرانى آخر شرع يعد العدة لمهاجمة المسلمين فى المدينة مما عجل بمعركة مؤتة! . .

ويذكر التاريخ أنه عندما أمر النبى ﷺ بمقاطعة كعب بن مالك ، أحد الثلاثة الذين خلفوا فى معركة تبوك ، أرسل إليه الأمير النصرانى يستضيفه ويغريه بترك المدينة ونبذ الإسلام! . .

وقد ارتد إلى النصرانية جبلة بن الأيهم وأبى قبول الاقتصاص منه فى مخالفة ارتكبها وآثر ترك العرب والمسلمين واللحاق بالروم ، فأين منطق القومية فى هذه الأحداث كلها؟ .

إن العرب النصارى لم يدخروا جهدًا فى النيل من الإسلام ووقف تقدمه مؤيدين فى ذلك الروم والفرس جميعًا !! . .

ونسأل : أكان الروم أو الفرس يكنون للعرب احترامًا؟ كلا ، لما جاء كتاب النبى ﷺ إلى كسرى يدعوه إلى الإسلام غضب غضبًا شديدًا وقال : **«يكتب إلى هذا وهو عبدى»**؟ الكلمة نفسها التى قالها فرعون لما عرض عليه موسى وهارون عبادة الله الواحد ﴿ **أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ** ﴾[1] .

كان الفرس يحتقرون العرب كما كان المصريون يحتقرون اليهود ، إن الإسلام وحده هو الذى رفع العرب إلى مستوى آخر ، جعلهم أساتذة يعلمون الفرس والروم ، ويحاولون نقلهم من الظلمة إلى النور ، فأين هذه القومية التى يفخر بها العرب ، ويردون إليها انتصارهم على الدولتين العظميين؟ . .

كان عرب العراق يقاومون الفتح الإسلامى مع الفرس ، فلما هزمهم خالد بن الوليد كان يسائلهم : أعرب ؟ فما تنقمون من العرب؟ أم عجم؟ فما تنقمون من العدل والإنصاف؟ فأين هذه القومية المزعومة؟ . .

لقد غلبتنى الدهشة وأنا أقرأ لأستاذ[2] جامعى يكتب لطلابه : « . . إن العامل الرئيسى للفتوحات الإسلامية هو عامل قومى أساسه نضج قومية العرب! وارتفاع روحهم المعنوية بعد استرجاع وحدتهم التى هددتها حركة الردة»!! .

(١) المؤمنون : ٤٧ .
(٢) كتاب تاريخ الدولة العربية للدكتور السيد عبد العزيز .

هل حركة الردة كانت تهديدًا للقومية العربية ، والوحدة العربية؟؟ أم كانت انتفاضا على الإسلام وتكذيبًا للوحى وعودا إلى الجاهلية ؟ .

أجدنى مضطرًا لمصارحة العرب ـ وهم قومى التائهون ـ بجملة حقائق ثقيلة! .

إننى ألمح مظاهر ردة أنكى من الردة الأولى تبغى الولاء للجنس وتأبى الولاء للإسلام! .

ليكن! . فحاجة العرب للإسلام أشد من حاجة الإسلام للعرب ، ﴿ **وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾[1] .

وعندما يقع هذا فسينتصب لمساندة الدين قوم أولى بالله منهم ، وأحق بالكرامة ﴿ **وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨)** ﴾[2] . ﴿ **مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ** ﴾[3] .

إننى مصرى عربى الإسلام ، ولولا لغة الوحى ما كانت لى صلة بالعرب ، اللغة وحدها لا الدم أو العرق أو الجلد تنميني إلى هذا الجنس! وما يسرنى أن أكون هاشميا ، إذ الشرف عندى هو الإسلام وحسب! وكما قيل :

ليس الأعاريب عند الله من أحد!! . .

والجيل الذى رباه محمد ﷺ هو خير القرون ، وشرف الإنسانية كلها ، لأنه الجيل الذى اعتز بالإسلام وحمل لواءه ، وبلغ رسالته ، والذى رفض أن يقدم على العقيدة أى شىء آخر ولو كان الآباء والأبناء .

لقد كان الوحى الإلهى برنامجه الملتزم ، وثقته الوحيدة ثم خلفت خلوف تقبل الوحى على إغماض وتكلف ، وتكره الانتماء إلى الدين وتحب الانتماء إلى العروبة (!) وعند وزن البشر بإنتاجهم المادى والمعنوى تطيش كفة هؤلاء ، وتود الأرض لو صغرت منهم ، فما يصلحون إلا علفا لمدافع الغزاة !! . .

لما كان الإسلام دينا عالميا فقد دخلت فيه أجناس كثيرة ، استفادت منه وأفادته! ووسعت رقعته على ظهر الأرض ، وعمقت ثقافته وحفظتها وورثتها الأجيال المقبلة ، وبذلت المال والدم فى سبيل عقائدها ، ولاتزال تجاهد دونها إلى يوم الناس هذا .

(١) البقرة : ٢٥٤ . (٢) محمد : ٣٨ . (٣) المائدة : ٥٤ .

وصحابة محمد عليه الصلاة والسلام هم أزكى أتباعه وأطهرهم، وأجدرهم بالتكرم والتأسى . .

بيد أننا نلحظ أن العرب حاشا الصحابة وتابعيهم بإحسان ـ كانوا كالوارث المعتمد على جهد أبيه ومدخراته، أخذوا أكثر مما أعطوا، وتشبعوا من الدنيا باسم الدين، وطلبوا من الناس أن يحملوهم ويقبلوهم مع الإسلام نفسه (!) ففرضوا خصائصهم العرقية على هدايات الله، وتقاليدهم الجاهلية والقبلية على حقائق الفطرة . .

فكان الملك العضوض أيام الأمويين! وكانت الخلافة الكاهنة أيام العباسيين والفاطميين! وكان احتقار الحرف والصناعات، وكان الافتخار بالأصل والعزوة! وكان احتقار النساء ـ بعد وأدهم فى الجاهلية ـ ومضى الانحراف إلى العصر السابق فخان العرب الترك حتى جعلوهم يرمون الخلافة فى البحر، ثم كانت الطامة الكبرى إذ ظهرت العروبة متخففة من الإسلام أو مستنكرة له، يقودها من لا علاقة له بالله أبدا .

ويوم نقول : إن القومية العربية هى السبب الأعظم فى نجاح الفتح الإسلامى الأول، فمعنى ذلك أن عقائد الإسلام وفضائله وحاجة العالم إليه أمور ثانوية أو وهمية ! .

ومن ثم يفقد الإسلام أمجاده التاريخية كما فقد وجوده التشريعى والتربوى فى الحاضر المهزوم ! .

لايجوز للجنس العربى أن يعدو قدره، ويفتات على غيره، وينسى أن الإسلام ولى نعمته ومقيم دولته، وحافظ كيانه وداعم أركانه . .! .

إن شعوب العالم فتحت أحضانها لحملة التوحيد النقى والأخوة الجامعة، ومبدأ «**المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم**» ولم تفتح أحضانها لنعرة جنسية أو عزوة أموية أو عباسية، أو أعراف بدوية وأوهام صحراوية .

كانت «قادسية» سعد بن أبى وقاص معبرًا لأركان الإيمان وحقوق الإنسان، ونظام الشورى، وإقامة العدل، بعد إطفاء المجوسية الخربة، ومحو الاستعباد السياسى وإخراج الناس من ضيق الأديان إلى سعة الإسلام ! .

لا كرامة للعرب بدون إسلام:

ونعود ـ بتفصيل قليل ـ إلى تاريخ العرب إبان الفتوح، ونسأل : هل انقض العرب الخاضعون للروم، أو الخاضعون للفرس على الفرس حين وجدوا عرب الجزيرة يشتبكون مع أعدائهم؟ . .

إن هذا أول ما يرتقب منهم تلبية لنداء العروبة! لكن شيئًا من هذا لم يحدث قط ! .

ونسأل ثانية : هل استقبل أولئك الخاضعون إخوانهم القادمين بشىء من الترحاب، وذاك أيسر ما يبذلون لو كان للعروبة قومية ملحوظة؟ لم يقع شىء من ذلك! .

الذى وقع أن العرب المستذلين قاوموا العرب الفاتحين بكل ما لديهم من وسع ! .

ولنلق نظرة على الجبهة الرومانية، فى موقعة اليرموك التى أجهزت على الوجود الأجنبى بالشام فنرى جبلة بن الأيهم يقود الألوف من النصارى العرب، مقاتلا مع الرومان أنفسهم ورابطا مصيره بمصيرهم ! .

إن كرهه لعمر بن الخطاب رسب فى أعماقه لأن عمر رفض الاعتراف له بامتيازات الإمارة، ورأى أن يسوى بينه وبين أعرابى من عامة الناس فارتد إلى النصرانية، وتألب مع القبائل التى على دينه ضد عقيدة التوحيد للخالق والمساواة بين الناس . . فأين هى القومية العربية؟ التى حاربت الروم؟ .

وقبل ذلك بسنين كانت معركة مؤتة التى حاول فيها مائة ألف من النصارى العرب ومعهم مثلهم من الرومان أن يفتكوا بالجيش الإسلامى القليل العدد، الجيش الذى حركه الغضب لأن هؤلاء العرب أذناب الرومان قتلوا بطريقة سافلة رسولا للنبى ﷺ أرسله إلى أحد أمرائهم .

كاد هذا الجيش يذوب لولا انسحاب خالد بن الوليد! وسبب المعركة، ماذكرناه آنفا، قال الأمير الغسانى للحارث بن عمرو ـ رسول النبى لتبليغ الدعوة ـ لعلك من رسل محمد؟ قال : نعم ! فشد وثاقه، ثم ضرب عنقه بالسيف! . .

فأين هى آصرة القومية التى تجمع بين المسلمين والعرب الخاضعين للروم؟ إن الأمر بلغ حدا من الهزل يستحق الدهشة أى قومية يعنون؟ ونذهب إلى جبهة فارس فماذا نرى؟ نرى عرب العراق ينضمون إلى مجوس فارس فى مقاومة

الصحابة والتابعين ، مع أن آخر ملك لهؤلاء العرب مات فى سجن كسرى! ولكنه الذل وقبول الدنية .

كانت موقعة الولجة ، وألّيس ، على نهر الفرات من أقسى المعارك التى خاضها العرب المتنصرون مع سادتهم المجوس ضد زحف خالد ورجاله! حتى بلغ الغيظ من خالد مبلغه ، وهو يرى بنى جنسه يكسوهم هذا الصغار! فكان إذا ظفر بهم يقول : أعرب؟ فما تنقمون من العرب؟ أم عجم فما تنقمون من العدل والإنصاف؟ . .

فكيف يجىء بعد هذه الحقائق الدامغة من يزعم زورا أن هذه الحروب كانت تحررًا وطنيًا ، أو ثورة قومية (!) تعاون فيها عرب الشام وعرب العراق مع زملائهم عرب الجزيرة ضد الروم والفرس!! . .

إن الصحابة والتابعين الذين خرجوا من المدينة المنورة كانوا يحملون حقا رسالة تحرير ، لكنها للشعوب كافة ، لجماهير الفرس والروم والعرب الذين طحنهم الحكم الفردى ، وكبل ضمائرهم وحرمهم الحقوق الطبيعية للإنسان .

إن الإسلام لم يكن فورة جنسية ، ولا نزعة استقلالية عن التدخل الأجنبى ، كما يريد نشر ذلك المستشرقون والمبشرون والعروبيون! إنه حركة إنسانية عامة تعلو على الأقوام والأوطان ، تربط الناس بربهم ليستهدوا به وحده ، ويستلهموا منه وحده ، وليكونوا فى القارات كلها سواسية فى الكرامة والولاء ، فلا سجود إلا لله ولا حكم إلا لله . .

فإن عقل ذلك العرب أفلحوا ، وإلا بادوا ، وأتى الله بخير منهم فى التأسى بمحمد ورفع لوائه! . .

٦٧. ألا يمكن ردم الفجوة بين السلف والخلف حتى تستطيع الأمة رد الغارات المتتابعة عليها؟

لا يوجد مسلم يحجب ولاءه عن السلف ، أو يرفض الاستقامة على نهجهم! كيف وهم دعامة الدين وحرسه الشديد ، وحاملوه إلينا نقيا قويا؟ . .

إن التفاوت نشأ من القصور العقلى لدى الدهماء ومن إليهم ، ومن ضعف الخلق ـ أو ضعف التقدير ـ عند بعض المشتغلين بالمعرفة الدينية ، ولا يوجد قضايا جسيمة تقسم الأمة اليوم إلى سلف وخلف ، وتتيح لأعدائها فرصة القضاء عليها . .

ولأستعرض صورا من الخلاف الناشئ ، وانظر : أين هى الفجوة المزعومة؟ . .

هل أتباع أحمد بن حنبل هم السلف ، وغيرهم هم الخلف؟ ما أظن عاقلا يزعم هذا! قد يكون التفرق المذهبى والتعصب الأعمى لإمام بعينه بدعة لم يعرفها السلف! وهذا حق! . .

والعلاج أن تشيع فى هدوء دراسة الفقه المقارن ، وأن تبحث القضايا من خلال مراجعة واعية لكتاب الله وسنة رسوله ، وأن يتم ذلك فى بيئات متخصصة بعيدة عن هوس الدهماء . .

ثم تقدم خلاصات عملية للجماهير مع ملاحظة :

(أ) أن فقه الفروع ثانوى فى رسم السلوك الإسلامى .

(ب) أن شغل العامة به لون من الثرثرة الدينية المعطلة للإنتاج ، والمضعفة للطاقة على الجهاد .

(جـ) أن اتباع أى رأى لإمام ثقة خطأ أم صوابا فى نظر الغير ، لا حرج فيه ، ولا يلد عداوة لأحد! . .

إن أولى الألباب أخذوا على عوام المسلمين قديمًا وحديثًا مغالاتهم الغريبة فى فقه الفروع وإهمالهم لسلامة الأخلاق والقلوب ، وتكاسلهم عن التفوق فى شئون الدنيا وأسباب الحضارة ، وهذا مسلك يودى بالدين كله .

وأمر آخر يثير البلبلة والفتنة! زيارة القبور والاستشفاع بأصحابها عند الله . .

والحق أن الخاصة الأولى فى الإسلام تعليق القلوب بالله وحده ، وإسلام الوجوه إليه ، والنظر إلى الأحياء والموتى على أنهم عبيد وحسب . . .

ولم يطلب الله منى وأنا أدعوه أن أستظهر معى بأحد ، أو أستشفع إليه بمخلوق . .

ولست أحب أن أعكر صفو التوحيد بمسلك سخيف . . وقد رأيت من زوار الأضرحة ما يثير التقزز ، ويوجب الإنكار . .

والذى أراه أن تعليم هؤلاء قد يفتقر إلى جهد شديد ، ولكنه واجب ، بل هو متعين ، وهو أولى وأجدى من تكفيرهم واستباحتهم واعتبار دارهم دار حرب!! . .

إنهم يكرهون التجسيد اليهودى ، والتعديد النصرانى ، وأنواع الوثنيات البوذية والهندوكية والعربية القديمة ، ويحرصون كل الحرص على انتمائهم الإسلامى ، بل يقاتلون دونه بكل ما أوتوا ! . .

فلماذا يحرص البعض على تكفيرهم ، ويعجز عن إرشادهم إلى المسلك؟ أكاد أقول إن الحرص على تكفيرهم مرض نفسى لايقل عن المرض الذى يعانى منه هؤلاء!! . .

نظرت إلى اختلاف الفقهاء فى حكم الصلاة بالمقبرة ، وتحيرت بادئ ذى بدء! أن جمهرة الأئمة الأربعة بين كاره ، أو مبيح! ثم جاء ابن تيمية ـ وللرجل وزنه العلمى ـ فحرم وشدد وذكر المسلمين بحديث نبيهم **«لاتتخذوا القبور مساجد، إنى أنهاكم عن هذا»!** . .

وخيل إلىّ أن تغير الناس هو السبب فى اختلاف الحكم ، فما كان المسلمون الأوائل يذهبون إلى مقبور يلتمسون منه شيئًا ، ومن ثم لم يشعر الفقهاء المفتون قديما بأن الأمر يستحق الخطر والوعيد . .

أما فى القرن السابع ـ عصر ابن تيمية ـ فإن أعدادا من العامة كانت تستجير من التتار الغازين بقبر أحد الصالحين! .

كيف يقع هذا ؟ وما يغنى المسكين عن هؤلاء اللائذين به؟ إنه لو كان حيا ما أفادهم! . .

وهل يفيد فى الحرب إلا من استكمل عدتها؟ ﴿ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ﴾(١) إن ذلك ماجعل الرجل يتشدد فى إنفاذ كلام رسول الله ﷺ ألا يبنى على القبر مسجد ، وألا يصلى فى مقبرة سدا للذريعة !! . .

الواقع أن حركة ابن عبد الوهاب ـ من الناحية العلمية ـ سليمة ، وقد تكون الوسائل الرديئة هى التى هزمتها ، يذكر الأستاذ أحمد أمين : «أنه قام فى الهند زعيم وهابى اسمه السيد أحمد ، حج سنة ١٨٢٢ م وهناك آمن بالمذهب الوهابى ، وعاد إلى بلاده فنشر الدعوة فى «البنجاب» وأقام دولة شبه وهابية وأخذ سلطانه يمتد حتى هدد شمال الهند! وأعلن حربا عوانا على البدع والخرافات! وهاجم الوعاظ ورجال الدين الرسميين! ثم دعا إلى الجهاد ضد من لم يعتنق مذهبه ، ويقبل دعوته ، وقرر أن الهند دار حرب! وقد لقيت الحكومة الإنكليزية متاعب كثيرة من أتباعه حتى استطاعت إخضاعهم» .

ألا نستفيد من ذلك كله أن الوسائل ينبغى أن يعاد النظر فيها على ضوء التجارب الفاشلة؟ . .

إن الإقناع أهم من التخويف ، والدليل أجدى من السيف ، وأنا أريد هداية الناس لا أسرهم! . .

ومن نظر إلى الدنيا على أنها مغنم له إذا انتصر ، فهو قاطع طريق! وليس داعيا إلى الله ، وهو أجهل الناس بسيرة محمد وشريعته! . .

وإذا كان القتال الغبى لامساغ له من أجل العقيدة فكيف إذا كان فى سبيل نقاب يوضع على وجه امرأة أو غطاء يوضع على قافية الرأس ، أو صورة ترسم على ورقة ، إن البعض مستعد لحرب أشد من حرب داحس والغبراء من أجل هذه القضايا المحقورة!! . .

(١) النساء : ١٠٢ .

وعلى أية حال فمن الخير أن ينأى عن ميدان الدعوة الدينية أصحاب الأمزجة السوداوية والطباع الغضوب والمتلمسون للبراء العيب! . .

وشيء أخير نثبته هنا . . لقد درسنا في الأزهر ونحن طلاب مذهبي السلف والخلف في آيات الصفات ، أعني التفويض والتأويل ، وتم ذلك دون تشنج أو توتر أعصاب ، وترك لمن شاء أن يختار ماشاء من أقوال! . .

وقد اخترت رأى السلف لأنه في نظرى أعرف بوظيفة العقل الإنسانى وقدراته ، ولأنه يسد الأبواب أمام مجالس الثرثرة الدينية التى تضيع الوقت سدى! ولأنه احترم مصادره الأصلية ، وازدرى فكر اليونان! . .

ومع ذلك فقد تعمقت في فهم أفكار الخلف ، وأستطيع القول بأن جمهرتهم حراص على توحيد الله وتوقيره! . وأن دراستهم لابد منها في فهم الملل والنحل ومقارنة المذاهب ، وأن الأفضل الآن تحنيط هذه الدراسات ووضعها في المخازن للذكرى والتاريخ .

فالنزعة العقلية المعاصرة لاتحب أن تسمع بحثًا عن : هل الله عالم بذاته؟ أو بصفة زائدة على الذات ؟! إن هذا اللون من الفكر أمسى لغوا ! . .

وعلى معتنقى فكر السلف أن يتجردوا لنصرة دينهم فالمدى فسيح! . أما أن يعتبروا اعتناق الفكر السلفى هو نصرة الدين ، وأن إلحاق هزائم بالأشاعرة قربى إلى الله ، فذاك الآن نوع من البطالة! . .

قال لى صديق من نجد : نطاق العقائد أوسع مما ذكرت ، والذين يقفون به عند هذه الحدود هم الذين لا يؤمنون بالوحيين معا ! . .

قلت دهشا : ما تعنى بالوحيين؟ قال : الكتاب والسنة! قلت : هذه تثنية مثيرة! فإن القرآن معجز تحدى الله به الإنس والجن! وهو مقطوع بثبوته كلمة كلمة! ولا كذلك السنة! أكثر السنة أحاديث آحاد ، يعمل بها في الفروع أما العقيدة فتحتاج إلى نص مستيقين ثابت بالتواتر! . .

والقرآن أصل الإسلام ، والسنة فرع يجيء بعده ، بيانا وتفسيرًا . .

قال : السنة مثل الكتاب في أنها مصدر للعقائد مادام السند صحيحا! . .

قلت : ماهى العقيدة التى ترى أنها ثبتت بحديث آحاد؟ وكلفت الأمة جمعاء باعتناقها؟ . .

فتروى قليلا ثم قال : ثبت في الصحاح أن الرسول ﷺ قال : **«لاتمتلئ النار حتى يضع الله تبارك وتعالى فيها رجله فتقول: قط قط، فهناك تمتلئ ويزوى بعضها إلى بعض ولا يظلم الله تعالى من خلقه أحداء** ، فالحديث أثبت صفة القدم! . .

قلت : هذا كلام باطل ، إنك مع بعض السطحيين فهمتم أن «الرجل» كلمة تعنى العضو المعروف ، وقد قال المفسرون : إن القدم مايقدم للنار من الأشخاص الأراذل الذين يستحقونها ، وارجع مثلا إلى تفسير القرطبى لترى أن القدم وكذلك الرجل مفرد أرجال الجراد ، وأرجال يعنى الأرتال ، والمعنى معروف لدى العلماء . .

فلا دلالة الحديث قطعية ، ولا ثبوته قطعى ، فكيف تنشئ عقيدة من ظن حائر؟ . .

وما طولب عربى ولا رومى ولا عجمى باعتقاد أن لله قدما ، فهل نأخذ الدين من سلفنا الأول أم نأخذه من عقولهم؟ . .

راجعوا أنفسكم ليلتقى المؤمنون على كلمة سواء . .

٦٨. ما حقيقة الملائكة والجن؟ وما علاقتهما بالإنسان؟

هذا ميدان شائك! لأنه يتصل بعالم الغيب، ودرايتنا به قليلة، وسأنقل خطواتي بحذر، مستهديا بما أملك من طاقة عقلية، وبما تيسر من تعاليم سماوية! . .

أؤكد أولا أن الوجود أكبر من الإنسان! وأن تصور الإنسان نفسه على أنه الكائن المحتكر للحياة ينطوي على غرور وجهالة، فالكون أكبر منا، وساكنوه أكثر عددًا، وأشد قوة! .

وقد فهمت من القرآن الكريم أن الجن عالم برز إلى الحياة قبل الإنسان، وربما كلف قبله قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴾[١] .

ويبدو أن إبليس أبا الجن ضايقه هذا الكائن الجديد، وظنه منافسا على مكانة استقرت له، فكره آدم وبنيه، وساءل الخالق معترضا: لم خلقت هذا الإنسان ذا الطبيعة الهشة؟ ولم أمرت بالسجود له؟ إنني أقدر منه وأصلب! ولو أطلقنا في سباق لألحقنَّ به وبأولاده شر هزيمة ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ[٢] ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[٣] .

وإبليس بهذا التصرف أحمق! فليس له ـ وهو أحد العبيد المخلوقين لرب الأرض والسماء ـ أن يقف هذا الموقف، فلله أن يخلق ما يشاء، ولله أن يفضل ضعيفا متواضعا على متكبر! وما أدرى إبليس أن من أبناء منافسه من يبهر بحسن الطاعة وصدق العبودية، ويحطم ما يتعرضه من عقبات، حتى يرضى ربه بجدارة؟ . .

على أن عالم الجن لم يمض كله في طريق إبليس، فقد بقي منه نفر كثير يعلن ولاءه لله، ويثابر على طاعته، ويؤدي التكاليف المطلوبة منه . .

(١) الحجر : ٢٦، ٢٧ . (٢) لأستأصلن . (٣) الإسراء : ٦٢ .

نعم في الجن ناس طيبون، يسبّحون بحمد ربهم وينكرون أن يكون له ولد، ويهتدون إلى الرشد وينفذون وصايا المرسلين، وهناك أيضا من واصلوا الحملات ضد آدم وبنيه، واحتالوا طويلا لإشقائهم وإقنائهم ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (١١) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا (١٢) وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٣) وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾[١] .

والاحتكاك دائم بين ذرية إبليس وذرية آدم، فما طبيعة هذا الاحتكاك؟ . .

الظاهر أن الشياطين ـ أعني الجن العصاة ـ ليس لهم أكثر من الوسوسة والاستغفال! ومع ضخامة قواهم المادية فهم مكفوفون عن استخدامها ضد بني آدم! إنهم يجيئون لمتردد فيغرونه بالجبن، ولمتوقح فيغرونه بالكبر، ولمتهافت على الشهوات فيغرونه بالفسق، وهكذا . .

وعندما يوقف الكل للحساب، يقول الشيطان لمن أغراهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ﴾[٢] .

والقانون ـ كما قيل ـ لا يحمي المغفل، فإذا زاغ بشر فهو المسئول عن نفسه، ومايملك أحد إرغامه على عوج، ولو استخدم مواهبه ما قدر أحد على الضحك منه .

قد تكون قصتنا على ظهر الأرض هي قصة أبينا آدم أيام الجنة! إنه لو ظل ذاكرًا فلم ينس، قادرًا فلم يضعف لارتد سهم إبليس إلى نحره! ولكنه لم يكن عند حسن الظن ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾[٣] .

والذين ينزلقون في دنيانا وقع لهم ما وقع لخلل داخلي فيهم جعلهم يتجاوبون مع كيد الشيطان، وينخدعون بكذبه ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾[٤] .

(١) الجن : ١١ ـ ١٥ . (٢) إبراهيم : ٢٢ . (٣) طه : ١١٥ . (٤) سبأ : ٢٠، ٢١ .

وعندما تقع رذيلة فلذة الشيطان منها الأز عليها وتزيينها ، ذلك كل ما يشتهى! أما الإنسان المجرم فلذته أكل حرام أو سرقة عرض أو ظلم ضعيف ، وما يحس مؤقتا بحلاوته لايحس الشيطان شيئًا منه ولا يرى لذة فيه ! . .

فرحة الشيطان أن يرى الإنسان ساقطا ذليلاً مغاضبا لربه ، ولذلك يقول الله لبنى آدم موبخا :

﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾(١) .

ويظهر أن للشياطين تخصصات شتى! كما يظهر أن بعضهم يلازم أنواعا من البشر ، ويقف نفسه على إغوائهم ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾(٢) .

وإذا كان للعصاة قرناؤهم ومضللوهم ، فإن الأقوياء ييأس الشيطان منهم ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾(٣) .

ونترك عالم الجن وعلاقته بالإنسان إلى عالم أخر أنقى وأطيب . .

إن الإنس والجن جنسان مكلفان ممتحنان قادران على الخير والشر ، والذكر والنسيان ، من أجل ذلك يحصى الله عليهما نعمه ثم يقول :

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾(٤) ؟ . .

لكن هناك عالما آخر إرادته من إرادة الله ، وحياته وقف على إنفاذ مشيئته ، هو عالم الملائكة الذين يرنون دائمًا إلى أنوار الألوهية ويستغرقون فى أمجادها قال تعالى :

﴿ وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ ﴾(٥) .

ووظائف الملائكة كثيرة ، وهم مع أبناء آدم من بدء تخلقه حتى يوارى فى التراب .

ففى الحديث عن ابن مسعود قال : قال رسول ﷺ : «إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكا بأربع كلمات، يكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقى أم سعيد، ثم ينفخ فيه الروح»!! . .

(١) الكهف : ٥٠ . (٢) الزخرف : ٣٦ . (٣) الحجر : ٤٢ .
(٤) الرحمن : ١٦ . (٥) الأنبياء : ١٩ ، ٢٠ .

وإذا صح أن نسمى هؤلاء الموكلين بالأرحام ملائكة الحياة ، فهناك آخرون للوفاة ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾(١) .

والمحيى المميت هو الله جل شأنه ، وهو الذى يلهم ملائكته ويقدرهم على فعل مايريد .

وقدرات الملائكة أعظم كثيرًا من قدرات الجن ، وإذا كان العفريت يستطيع أن يلمس السماء ، أو ينقل شيئًا من اليمن إلى فلسطين فى ساعة ، فإن الملائكة أوسع طاقة ، وفيهم من يستطيع تطويق أعتى المردة ، والهوى به إلى أسفل سافلين . .

والملائكة يتابعون حياة البشر ، ويسجلونها سواء كانت نية فى القلوب ، أو كسبا للجوارح ، ويعنى هذا بلا ريب رؤية عجيبة وصحوا تاما ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾(٢) .

وما يحتاج ربنا جل جلاله إلى من يعلمه أو يذكره ! ولكن النظام الذى وضعه لكونه ، أحصى فيه كل شيء من المخلوقات والأعمال ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾(٣) .

والملائكة الكرام الكاتبون لاينتهى لهم تسجيل ، ولا يقف لهم إحصاء ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾(٤)؟ .

والملائكة صديقة للمرء المؤمن تفرح بعبادته وتهش له ، وإذا دخل المسجد للصلاة حفت به ، وإذا جلس فى طاعة الله شرعت تدعو له : اللهم ارحمه ، اللهم اغفر له ، وثبت أن لها نوبات فى صلاتى الفجر والعصر ، ثم تصعد إلى ربها تذكر له ماترى ، وهو أعلم به ، ولكنه النظام الذى وضعه سبحانه .

فى المحافل الجادة ، وفى مجالس الخير تكون الملائكة بلطفها ودعائها مع المؤمنين فربما قال أحدهم الكلمة يعينه عليها ملك كريم ، وربما صاغ القصيدة فى الدفاع عن الله ورسوله ، يؤيده فيها الروح القدس ـ كبير الملائكة . .

(١) السجدة : ١١ . (٢) ق : ١٧ ، ١٨ .
(٣) يونس : ٦١ . (٤) الرحمن : ٢٩ ، ٣٠ .

وفى الوقعات التى يصطرع فيها الحق والباطل ، ويبيع جند الله أنفسهم لنصرة دينه ، تتنزل الملائكة لتشجع وتلهم ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾(١) فى هذا الحين تكون ملائكة أخرى لنزع أرواح الكفرة ، تتناولها باللطمات ظهر البطن ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾(٢) .

وهذا الكلام يحتاج إلى تفسير شامل ، فإن الملائكة لم تعمد إلى سكير فى حان لتدعو له وتلتمس له المغفرة ، بل دعت لامرئ يريد أن يتزكى ، سعى إلى المسجد ليؤدى حق الله ، وغالب أشغال العيش وأوقات اللهو ، ورجح عليها ذكر ربه فهو أهل لأن يصلى عليه الكرام الكاتبون . .

كذلك لم تعمد الملائكة إلى جبان فار من الميدان لتسأل له التثبيت والرضا ، وإنما دعت لرجل مؤمن هزم حب الحياة وآثر نصرة الله ، فهو جدير بالإيناس والبشرى! . .

والأصل فى هذا التفسير قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾(٣) . .

إن تنزل الملائكة كما يفيد ظاهر الآية فى أحوال الحياة كلها ، لا فى الرمق الأخير وحده كما يرى البعض . .

ويتضح ذلك عندما تعلم أن هذه الآية فى مقابلة ما نزل فى الغافلين المعوجين قبل ذلك مباشرة وهو قوله تعالى :

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾(٤) .

فالأشرار تؤزهم الشياطين ، والأخيار تؤيدهم الملائكة ، والفريقان مسئولان برءوسهم عن نفوسهم ، فهم ذوو عقول ، ولهم إرادة حرة يحاسبون بها قبل أى شىء! . .

(١) الأنفال : ١٢ . (٢) الأنفال : ٥٠ . (٣) فصلت : ٣٠ . (٤) فصلت : ٢٥ .

٦٩. ما معنى أن لله تسعة وتسعين اسما وما مغزاها ؟

فى القرآن الكريم ﴿ اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾(١) . وفيه كذلك ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(٢) .

المتأمل فى هذه الأسماء يجدها صفات علا ، ونعوت كمال وجلال وجمال . . والصفة تسمى اسما إذا دامت لصاحبها ولازمته فلم تنفك عنه كأنها أشبهت العلم الذى أطلق عليه وعرف به! . .

والأسماء الحسنى ـ بهذا المعنى ـ كثيرة ، لأن معالم العظمة الإلهية ليست لها نهاية ، وهى مبثوثة فى القرآن كما تنبث النجوم فى آفاق السماء ـ ولله المثل الأعلى ـ ويغلب أن تختم بها آيات ، ويختار الاسم ، أو الأسماء الخاتمة من السياق الذى جاءت به الآيات . . وسنشرح ذلك بعد حين . .

وجاء فى الحديث الصحيح **«إن لله تسعة وتسعين اسما، من حفظها دخل الجنة، إن الله وتر يحب الوتر»** . . وفى رواية **«من أحصاها دخل الجنة»** ، والمراد بالإحصاء ألا يقتصر فى معرفة الله ودعائه على بعض دون بعض ، بل يعيها كلها ، ويتعرف على الكمال الأعلى والعبودية الصحيحة من خلال مدارستها وإشراب القلب حقيقتها . .

وليس المقصود أن الأسماء الحسنى محصورة فى هذه التسعة والتسعين ، فهى أكثر من ذلك . .

والإسلام جاء لتصحيح أخطاء البشر فى فهم الذات الأقدس ، وتنزيهه عن أوهام القاصرين والجاهلين ، فإن الأديان الأرضية أثبتت للألوهية صورة مشوهة منكورة يرفضها أولو الألباب ، ويدركون أن مبدع هذا الملكوت أعلى منها وأجل . .

ثم جاء أهل الكتاب يتحدثون عن إله يتمدد واضعا يده تحت قفاه ، وواضعا قدما على أخرى!! إله ينسى ويندم ، ولا يدرى خطورة تصرفاته! . .

(١) طه : ٨ . (٢) الأعراف : ١٨٠ .

وقد أمر المسلمون أن يتركوا أولئك الملحدين فى أسماء الله ، وأن يعبدوا الله بأسمائه الحسنى وحدها . .

وقارئ هذه الأسماء لايفهمها إلا إذا عرف الكون والحياة ، عرف هذه السماء المبنية ، والأرض المفروشة ، عرف قوافل الأحياء وهى تعبر عصرا بعد عصر فى طريقها إلى الدار الآخرة .

لايمكن أن تتم معرفة الله بمعزل عن ملكوته الكبير ، ومتابعة لقدره المحكم وهو يهزم وينصر ويضحك ويبكى ويخفض ويرفع ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾(١) .

والعارف بالله من خلال إحصائه للأسماء الحسنى ، يعرف أن العالم كبير ، ولكن خالقه أكبر منه! وأن عقل الإنسان جهاز رائع ، ولكن مبدع الألوف المؤلفة من العقول المنتشرة فى القارات الموجودة من أزل الدنيا إلى أبدها - أروع وأوسع!

وماذا نقول؟ إن الحشرة المتحركة على الثرى لاتدرى : ما الإنسان ، وماذكاؤه؟ وما الكون ، وما أبعاده؟ إن الكلمة لاتدرى : ما كاتبها؟ فكيف نعرف نحن التافهين كنه الذات العليا ، وأماد عظمتها؟ . . .

إننا فى نطاق العبودية العاجزة نسبح بحمد الله ونتحدث عن مجده ، ونعلن بصدق ولاءنا له وفقرنا إليه . .

ولعلمائنا بعض التعليقات على الحديث الذى ذكر الأسماء التسعة والتسعين ، قالوا : الأسماء المتقابلة لاينبغى أن نذكرها مفردة ، واقفين عند المعنى الذى لانحب ، كالضار النافع ، والمعز المذل ، والقابض الباسط . .

فإن هذه الأسماء ذكرت بمعانيها المتضادة حتى يعلم البشر أن ماينوبهم من خير وشر ليس بمعزل عن علم الله وتقديره! وله جل شأنه أن يختبر عباده بما يسوء ويسر . .

وعلى العبد أن يطلب كشف الضر ممن أرسله ، ويغلب أن يكون نصاب المرء من عند نفسه وأنه حرم اللطف بسبب ما اقترفه ، ومن ثم يطلب العفو والتجاوز .

ومن الأدب لذلك أن ينسب الخير لله ، وينسب الشر لنفسه ، وتأمل فى دعاء

(١) الرعد : ٢ .

الخليل : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾(١) ولم يقل : أمرضنى .

وتوقف بعض العلماء عند اسم «المنتقم» ، ورده قائلا : لم يرد فى الكتاب أو السنن الصحاح .

والذى ورد فى آية ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾(٢) .

والفارق كبير بين العبارتين ، إن الله لم يصف مكة بأنها قرية ظالمة عندما آذت المؤمنين قديمًا وإنما جاء فى الآية ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾(٣) ، وبين الوصفين تفاوت! . .

والأسماء الحسنى تقريب للعظمة الإلهية من العقل الإنسانى الكليل ، ومن مشاعر البشر المأنوسة ، وإلا فلا يعرف الله إلا الله ، أو كما وصف رسوله محمد ﷺ : «**سبحانك لانحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»! . .

ومن الحقائق التاريخية أنه لايوجد إنسان أحسن تمجيد الله ، وإجلاله مثل محمد عليه الصلاة والسلام ، وكأنما عقد مسابقة بين أصحابه ليتنافسوا فى الثناء على الله ومدحه والتزلف إليه واللهج بمحامده! . .

عن بريدة رضى الله عنه ، سمع النبى ﷺ رجلا يقول : اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . . فقال : «**والذى نفسى بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى**» . .

وعن أنس ﷺ قال : دعا رجل فقال اللهم إنى أسالك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت المنان ، بديع السموات والأرض ذو الجلال والإكرام ياحى ياقيوم . . فقال النبى : «**أتدرون بما دعا؟**» . . قالوا : الله ورسوله أعلم! . قال : «**والذى نفسى بيده لقد دعا الله باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى**»!! . .

واسم الله الأعظم يبلغه العبد الذى ينبعث عن إخلاص عميق ، ودعاء حار ،

(١) الشعراء : ٧٨ - ٨٠ . (٢) آل عمران : ٤ . (٣) النساء : ٧٥ .

والذى يجتهد فى الثناء على الله بما يحفظ من صفاته وأمجاده . .

وعن أنس «بينما رسول الله ﷺ يصلى إذ جاءه رجل قد حفزه النفس ، أى يلهث وتتتابع أنفاسه . فقال : الله أكبر ، الحمد لله كثيرًا طيبًا مباركًا فيه! فلما قضى الرسول الصلاة قال : **أيكم المتكلم بالكلمات؟** فأرم القوم ـ أطرقوا سكوتا ـ فقال الرسول : **إنه لم يقل بأسا!** فقال الرجل : أنا يارسول الله ، فقال : «**لقد رأيت اثنى عشر ملكا يبتدرونها، أيهم يرفعها إلى الله**» .

وظاهر أن الصحابى القائل أنشأ الكلمة من بيانه! ولم يسبق إليها . .! إنها نضح الإيمان الذى تعلمه من نبيه فأطلق لسانه بهذا الثناء والتكبير .

ومعرفة الأسماء الحسنى ليست تصورًا نظريا للكمال الذى تومئ إليه ، إنها فى إحساس المؤمن لابد أن تختلط بشئون الحياة التى يحياها وتلى عليه السلوك الذى يلائمها . .

لاحظت أنه فى أوائل سورة الحديد قرابة خمسة وعشرين اسما ووصفا لله تعالى ، تتابع سردها على نحو يثير الفؤاد! .

ثم لاحظت كأن هذا كله كان تمهيدًا لتكاليف محددة من الإيمان والإنفاق والجهاد والهجرة بدأت بقوله تعالى :

﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[1] . .

إن إحصاء الأسماء الحسنى كما جاء فى الحديث الشريف هو إقامة الخلق والسلوك عليها . .

من أولى من الله أن نؤمن به؟ إنه الأول والآخر والظاهر والباطن! . .

من أولى من الله أن نرفع الصوت بتسبيحه وتكبيره؟ إنه الله الذى سبح له ما فى السموات والأرض . .

من أولى من الله أن ننفق فى سبيله ، إنه مانح المال فى الحياة ، ووارثه مع فناء الكون كله . .

من الذى يلجأ إليه الحائر ، ويستهدى به التائه؟ إنه النور ، الهادى! . .

من الذى ينقى له القلب وتخلص له النية؟ إنه العليم بذات الصدور .

(١) الحديد : ٧ .

والبشر يتفاوتون فى هذه المعانى وآثارها ، ولذلك يقول الله للمؤمنين فى هذه السورة :

﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[1] . .

ولما كان المسلمون قد جاءوا بعد اتباع أديان لم تحسن معرفة الله ، ولم تع أسماءه الحسنى ، فقد نبهوا إلى اليقظة ، ونبذ الغيبوبة التى طوت الأولين ، **﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾**[2] .

والخشوع لذكر الله فى السياق الذى يملأ السورة كلها يقوم على أن الأسماء الحسنى لايمكن عزلها عن الكون والحياة ، فالإيمان بالله لايتم داخل صومعة معتمة ، لا ضوء بها ولا حراك ولا جهاد .

وربما لا يتحقق هنا الخشوع إلا فى ميدان عراك مع الملحدين فى أسماء الله ، الجاهلين بحقوق الخالق الكبير ، الذين يريدون أن تمضى الحياة بعيدة عن هداه ، محرومة من بركته وجداه .

(١) الحديد : ١٠ .　(٢) الحديد : ١٦ .

٧٠. هل من شرح وجيز لأسماء الله الحسنى؟

الله اسم الذات، المختص به جل شأنه، لايتسمى به غيره، فهو علم على المعبود بحق، الذى تعنو له السموات والأرض وما بينها، ونحن نرفض إطلاق اسم «وجود» أو «ديه» على الذات الأقدس فلفظ «الله» وحده هو العلم الحقيقى.

«الرحمن» و«الرحيم»: من أسماء الله الحسنى، ومعنى الرحمة معروف، والاسم الأول مختص كذلك بالله سبحانه فلا يوصف به غيره ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾[1]. وهذه الصيغة فى اللغة تعنى بلوغ الصفة تمامها أما الرحيم فالصيغة تعنى فيضان الوصف ليشمل الآخرين، فالذات العليا ممتلئة بالرحمة، وهذه الرحمة تعم الغير، وتشمل كل شىء.

«الملك»: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً﴾[2]. ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾[3].

«القدوس»: المطهر من كل عيب، المنزه عن كل نقص، ومحور التسبيح يدور على هذا المعنى، سبحانه وتعالى:

«السلام»: الذى لايجىء من قبله عدوان، بل يرتقب الخير والرضا.

«المؤمن»: الذى يذهب القلق والخوف ويمنح الطمأنينة والأمان ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾[4].

«المهيمن»: الذى لايغيب عن سلطته شىء، فهو يرقب ملكوته كله رقابة استيعاب وشهود.

«العزيز»: الغالب فلا يغلب، والذى يجير ولا يجار عليه، ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾[5].

(١) الإسراء: ١١٠. (٢) مريم: ٩٣. (٣) الرعد: ١٥.
(٤) قريش: ٤. (٥) غافر: ١٠.

«الجبار»: العالى فوق الخلائق كلها، وفارض قضائه وقدره على كل شىء ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾[1].

«المتكبر»: المتعالى على صفات الخلق لايتنزل إليها، والتاء فى هذه الصيغة للانفراد والتخصص، لا للتكلف، من الكبرياء بمعنى العظمة التى هى حق الله، ومن نازعه هذا الحق من جبابرة الأرض قصمه.

«البارئ»: الخالق ويغلب أن تستعمل الكلمة فى إيجاد الأحياء، فيقال: بارئ النسم أى الأرواح..

«المصور»: منشئ الخلق على صور شتى ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾[2]. وقلما تتفق ملامح الوجوه، مع كثرة الناس، ويكاد يستحيل اتفاق بصمات الأصابع، وهو سبحانه مصور خطوطهما..

«الخالق»: موجد الكون من عدم، ولا يقدر أحد على الإيجاد من عدم ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ﴾[3].

«الغفار»: الذى يتجدد غفرانه لعباده مع تجدد عصيانهم له، وأصل الغفر الستر والتغطية ثم العفو!..

«القهار»: الذى تنفذ إرادته دون اعتراض! فيستحيل أن يردها بشر أو ملك، وهو معطى الكواكب أحجامها ومعطى الرسل أقدارها ومكانتها، وإذا منح أو منع لم يجرؤ على رد مشيئته أحد ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾[4].

«الوهاب»: صاحب العطايا الجزيلة، تفضلا منه على من شاء ﴿إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[5]..

«الرزاق»: الذى يطعم ولا يطعم، ويسوق لكل حى ما يفتقر إليه، ويفعل ذلك عن سعة واقتدار ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[6]..

(١) الأعراف: ٥٤. (٢) آل عمران: ٦. (٣) النحل: ١٧.
(٤) الأنعام: ١٧، ١٨. (٥) آل عمران: ٧٣. (٦) الذاريات: ٥٨.

«الفتاح» : الذى يفتح أبواب الخير المادى والأدبى من رزق أو علم ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴾(١) . .

«القابض الباسط»: هذه الصفات المتقابلة تشير إلى أفعال الله بين الناس حسب حكمته وإرادته ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾(٢) ، وليس هناك من يقترح أو يتدخل أو يعترض أو يعقب بل الله هو القابض الباسط وفق ما يعلم من خلقه ويشاء لهم .

ومثل ذلك «الخافض الرافع» و «المعز المذل» وآثار هذه الأسماء بين الناس تحتاج إلى إيضاح ، إن المرء بفطرته يكره الذل والخفض ، ويحب العز والرفع ، فإذا اشتهى ما يحب فعلى باب الله يجب أن يقف داعيًا ، وإذا استعاذ مما يكره فعلى باب الله يجب أن يقف لاجئًا مستعيذًا! . .

وهو سبحانه يعز من يشاء ويذل من يشاء ، بيده الخير ، ما يستعير شيئًا من أحد! ، وهل معه أحد؟؟ . .

لكن الكثيرين من الناس لا يعرفون ما العز؟ وما الذل؟ إن ملوك الآخرة عاشوا سوقة فى الدنيا ما يأبه بهم أحد ، وإن حطب جهنم ربما عاشوا فى الدنيا فراعنة يستعرضون الجيوش ، ويسيرون المواكب! حتى تجىء الآخرة فتصحح الأوضاع المقلوبة ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾(٣) وفى الحديث «رب كاسية فى الدنيا عارية يوم القيامة»! وفى الحديث كذلك «رب أشعث أغبر ذى طمرين لو أقسم على الله لأبره» .

فإذا ذكرت هذه الأسماء الحسنى وما شابهها ففى ضوء هذه المعانى ينبغى أن تفهم . .

وثم ضميمة أخرى ، إن الله إذا أعز فلا ذل أبدا ، وإذا أذل فلا عز أبدا ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾(٤) .

(١) فاطر : ٢ . (٢) العنكبوت : ٦٢ .
(٣) الواقعة : ١ ـ ٣ . (٤) آل عمران : ١٦٠ .

وكل صوت تهمس به فى أذن صاحبك فالله سامعه! وكل حركة فوق الثرى فالله رائيها! . وعندما شعر موسى بالخوف لما بعث هو وأخوه إلى فرعون ، وقالا : ﴿ قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى ۝٤٥ قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾(١) .

فالله هو السميع البصير ومن أسمائه الحسنى «الحكم» . . «العدل» إنه المشرع الأعظم ، فلا حاكم غيره ولا معقب لحكمه ولا يلتمس العدل عند غيره إلا أحمق ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا ﴾(٢) .

وهو يحكم بين عباده بما يشاء فى الدنيا والآخرة ، وقد يؤخر حكمه فى أمور تقع بين الناس الآن ليبت فيها يوم الفصل ، والدنيا دار اختبار ، وقد يكون من لوازم الاختبار أن يترك الناس على نظامهم إلى حين ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾(٣) .

ومن أسمائه الحسنى «اللطيف» إنه يبلغ أمره بخطة رائعة وحكمة بالغة ، وقد شعر بذلك يوسف فى نهاية قصته فقال : ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾(٤) كما أنه فى سننه الكونية يقدر بلطافته على استخراج الحبوب والرياحين من بين الماء والطين ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾(٥) .

«الخبير»: العارف بالبواطن والأسرار .

«الحليم»: بعيد الأناة فى معاملة المخطئين فلا يعالجهم بالعقوبة ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ ﴾(٦) .

«العظيم»: إن علماء الكون يشعرون بضآلة أمام أبعاده وأغواره! فكيف يكون الشعور أمام من أبرزه من عدم ، وبنى فأوسع؟ . .

«الغفور»: للمسىء «الشكور» للمحسن «العلى» فوق الخلائق كافة سبحان ربنا الأعلى .

(١) طه : ٤٥ ، ٤٦ . (٢) الأنعام : ١١٤ . (٣) الأنعام : ٦٢ .
(٤) يوسف : ١٠٠ . (٥) الحج : ٦٣ . (٦) النحل : ٦١ .

«**الكبير**»: المتصف بجلال الشأن ، وعظمة الذات والكلمة مأخوذة من الكبر ، ومنها الهتاف المتكرر فى الآذان بالغدو والآصال : الله أكبر ، فما عدا الله موصوف بالصغر وملوك الأرض وجبابرتها موصوفون أمامه بالصغار . .

«**الحفيظ**»: الذى لاتضيع عنده الودائع «**المقيت**» القيم على الأحياء يوفر لهم أقواتهم فيغذيهم صغارًا وكبارًا .

«**الحسيب**»: الذى يكفى من أوى إليه وتوكل عليه ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾(١) ومن ذلك التعبير المحفوظ : حسبنا الله .

«**الجليل**»: من الجلال أو الجلالة وهو العلو المقرون بالمهابة «**الكريم**» يده تسخو بالعطاء ليلا ونهارًا من بدء الخلق وما دام الخلق «**الرقيب**» من الرقابة وهى النظر إلى الأشياء بدقة وإحاطة .

«**المجيب**»: قابل الدعاء والرجاء ممن قصده ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾(٢) .

«**الواسع**» الذى وسعت رحمته كل شىء ، ووسع غناه كل فقير «**الحكيم**» الذى لايقع فى فعله عبث ولا فى وحيه عوج ، ولا فى خلقه تفاوت «**الودود**» الذى يتقرب إلى عباده بالنعمة والتجاوز مع غناه عنهم ، وحاجتهم إليه «**المجيد**» المجد تمام الشرف ، والله أهل الثناء والمجد وأمجاد الألوهية تعنو لها الخلائق كافة «**الباعث**» محيى الموتى ليوم النشور .

«**الشهيد**»: الذى لايغيب عنه شىء ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾(٣) ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾(٤) .

«**الحق**»: الوجود الإلهى واقع لايزول ولا يحول ، وكل كائن يأخذ وجوده من الله عارية تسترد يومًا (**ألا كل شىء ما خلا الله باطل**)!! . .

«**الوكيل**»: الذى نفوض إليه أمورنا فيقوم بها عنا ، وله القدرة على كفالة أرزاقنا ، وإنجاح سعينا ، ومن ثم يجب التوكل عليه .

«**القوى**»: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾(٥) .

---

(١) الزمر : ٣٦ .　(٢) الشورى : ٢٦ .　(٣) الأعراف : ٧ .
(٤) البروج : ٩ .　(٥) فاطر : ٤٤ .

«**المتين**»: الذى لايلحق قدرته إعياء .

«**الولى**»: الذى يتولى أمور الكون ، ويقوم بها كما يقوم ولى اليتيم القاصر بشئونه كلها ، ولله المثل الأعلى .

«**الحميد**»: كل أفعاله جديرة بالحمد ، والحمد معنى يمتزج فيه المدح والشكر والتمجيد .

«**المحصى**»: فى سجلاته إحصاء لكل شىء ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾(١) .

«**المبدئ**»: خالق الأشياء لأول مرة و «**المعيد**» الذى يرد إليها وجودها بعد إفنائها ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾(٢) .

«**المحيى المميت**»: الذى خلق الموت والحياة ، وأخضع لهما الكائنات ، أما هو فإنه «**الحى**» بذاته وهو «**القيوم**» لاتقوم الأشياء إلا به ، ولو سلبها وجودها لتلاشت ، فتيار الوجود يجيئها مددا بعد مدد من الحى القيوم ، فمنه الإيجاد والإمداد جميعًا . .

«**الواجد**»: من الجدة وهى الثروة ، وأملاك الله لاتعد ، لأن كل شىء ملكه «**الماجد**» كالمجيد «**الواحد**» المنقطع القرين لاشريك له ولاندّ ولاضد ، «**الأحد**» مثله ، وأساسه الانفراد والوحدة عن الأصحاب «**الصمد**» هو السيد المقصود عنه كل سؤال «**القادر**» و «**المقتدر**» المعنى واضح والتكرار زيادة فى نفى العجز ، فإن جهلة البشر تتعاظم عندهم أمور هى عند الله بين الكاف والنون . .

«**المقدم**» و «**المؤخر**»: الله - تبارك اسمه - يرتب الأشخاص والأشياء وفق مشيئته وحكمته ، وهو يتفضل دون مساءلة ! ولكنه منزه عن الظلم وفى الحديث : «**أنت المؤخر ، لا إله إلا أنت**» . .

«**الأول**»: السابق فليس قبله شىء «**الآخر**» الباقى فليس بعده شىء «**الظاهر**» المستعلى فليس فوقه شىء «**الباطن**» المحتجب عن الأبصار ، فليس دونه شىء! . .

«**الولى**»: المتصرف فى ملكوته لا ينازعه أحد «**المتعالى**» المنزه عن أوصاف الخلق وعما لايليق بكماله ، ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾(٣) . ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾(٤) .

---

(١) القمر : ٥٣ .　(٢) الأنبياء : ١٠٤ .　(٣) الجن : ٣ .　(٤) الإسراء : ٤٣ .

«البر»: مصدر البر والحنان وكل مايتعاطف له الناس . «التواب» ملهم عباده ترك الإثم ، والندم عليه والاعتذار إلى ربهم عنه «المنتقم» المقصود أنه بالمرصاد للمجرمين يقمع غرورهم ، ويؤدبهم على طغواهم! «العفو» يصفح عمن أساء ، والعفو أحب إليه من القصاص ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾(1) .

«الرءوف»: الرأفة رقة تجعل المرء يخفف فى التكليف ، ويؤثر التجاوز عند الخطأ ، ولله المثل الأعلى ، وهو يكلف فى حدود الطاقة ويقدم الصفح على المؤاخذة ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾(2) . ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(3) .

«ذو الجلال والإكرام»: صفات الجلال تورث الخشية والرهبة ، وصفات الجمال - وأساسها الإكرام - تورث الحب والرغبة ، وجاء فى الحديث : «انطقوا بياذا الجلال والإكرام» أى ألحوا على الله بهذا الاسم .

«مالك الملك»: كل شىء خلقه وعبده ، لاشريك له! «المقسط» العادل ، «الجامع» الذى يحشر الخلائق للحساب ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ﴾(4) .

«المانع»: يحمى أولياءه ويدفع عنهم وينصرهم «الغنى» المعنى واضح . «المغنى» واهب الغنى النفسى والمادى» .

«الضار النافع»: ماتراه من سرور وحزن ، ونعمة ونقمة ، ونصر وهزيمة فمن الله وحده . ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (43) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾(5) يختبر الله عباده بالأضداد .

«النور»: الذى يبصر بنوره ذوو العماية ، ويرشد بهداه ذوو الغواية ، وهو فالق الإصباح ومضىء الآفاق! .

«الهادى»: المنقذ من الحيرة ، ومثبت المؤمنين على الحق . (البديع) الإبداع اختراع ماليس له مثال ، والكون صنع الله الذى لم يصنع من قبل مثله .

(1) الشورى : ٢٥ . (2) النساء : ٢٨ . (3) الحج : ٦٥ .
(4) آل عمران : ٩ . (5) النجم : ٤٣ ، ٤٤ .

«الباقى»: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾(1) .

«الوارث»: الذى يؤول الوجود إليه . .

«الرشيد»: مرشد الناس إلى مصالحهم فى معاشهم ومعادهم .

«الصبور»: الذى يرى من عباده القبيح فلا يسارع بالفضيحة ، ويسمع منهم السوء فلا يعاجل بالعقوبة ، فهذا الاسم كاسمه .

«الحليم»: غير أن قد يطول لطفه ، ويرجى صفحه . أما الصبور فينبغى القلق من إمهاله!! . .

ويمكن أن يطالع القارئ فى شرح الأسماء الحسنى بتوسع وبصيرة كتاب أبى حامد الغزالى «المقصد الأسنى» ففيه إن شاء الله ما ينفع .

(1) القصص : ٨٨ .

٧١. طائفة من العباد يجتمعون على ذكر الله بأسمائه الحسنى كلها أو بعضها، وقد يتمايلون أو يهتزون، فما حكم هذه العبادة؟

هذه بدعة قديمة استحدثها بعض أصحاب المشاعر المضطربة ، وقد سماها بعض الصحافيين الأجانب «الرقص الديني» وهي تسمية يحس المسلم بالخزي إذا سمعها ، لأنها تجعل الإسلام أشبه بالعبادات التي يمارسها الزنوج في إفريقية وهذه فتنة مزعجة ، وإهانة شديدة للإسلام . .

والغريب هو ظهورها من قديم! فقد سئل الحسن البصري عن هذه المجالس فنهى عنها أشد النهي! وقال : لم يكن ذلك من عمل الصحابة ولا التابعين ، وكل مالم يكن من عمل الصحابة ولا التابعين فليس من الدين - يقصد في شئون العبادات - وقد كان السلف حراصا على الخير وقافين عند حدود الله ، وكانوا أحرص على الخير من هؤلاء ، فنعلم أن ماتركوه ليس من الدين وقد قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾[1] .

قال مالك بن أنس تعقيبا على كلام الحسن : **«فما لم يكن يومئذ دينا لن يكون اليوم دينا، وإنما يعبد الله بما شرع، وهذا التجمع بالذكر والتمايل فيه لم يشرع قط فلا يصح أن يعبد الله به»**..

وحكى عياض عن التنيسي قال : كنا عند مالك وأصحابه حوله ، فجاء رجل من أهل «نصيبين» يقول : يا أبا عبدالله عندنا قوم من الصوفية يأكلون كثيرًا ، ثم يأخذون في إنشاد القصائد ، ثم يقومون فيرقصون! فقال مالك : أصبيان هم؟ قال : لا! قال : أمجانين هم؟ قال لا ، قوم مشايخ يذكرون الله! قال مالك : ماسمعت أحدا من أهل الإسلام يفعل هذا؟ . .

(١) المائدة : ٣ .

وقال أبو إسحاق الشاطبي : إن الاجتماع على ذكر الله بصوت واحد من البدع المحدثة التي لم تكن في زمان رسول الله ﷺ ، ولا في عصر السلف ، ولا عرفت قط في شريعة محمد وفي الحديث الصحيح **«إن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»** . .

الواقع أن هذا المسلك انحراف ديني مرفوض ، ونحن هنا نتساءل : ما الذي حمل عليه ، ودفع جماعة من العابدين إليه؟ . لابد من تحديد السبب لإمكان الدواء . .

إن الفقير قد يلزم طعامًا واحدًا لأنه لايجد غيره ، ولو كان موسعا لنوَّع وكثَّر!

وخطيب الأرياف الذي لايحفظ إلا خطبة واحدة لايجد بدا من تكرارها! ماذا يصنع؟ ذلك مبلغه من العلم! . وهكذا . .

والأمة الإسلامية حبست نفسها ، أو حبستها ظروف سيئة في حملة من العبادات لاتتجاوزها ، فإذا اتسع وقتها ، وشاقتها الطاعة كررت ماتعرف ، فضمت إلى صلاة الفريضة مثلا صلاة نافلة ، فإذا اتسع الوقت أكثر تنفلت أكثر!

وربما عَنَّ للبعض أن يخترع من عند نفسه عبادات لا أصل لها ، ليزداد بها قربى إلى الله . .

ونسأل مرة أخرى : لماذا انفتح باب الاختراع في الدين ، وهو شر؟ ولم ينفتح باب الاختراع في الدنيا وهو الخير؟ . .

ولماذا كرر الأتقياء الصلوات ، والصيام ، والذكر والاستغفار ، وزادوا أرصدتهم من النوافل هنا ، على حين قلت أو صغرت الأرصدة في ميادين الأمر والنهي والجهاد المدني والعسكري ، والاحتراف والتطواف بالبر والبحر ، ومسابقة الأمم في تنمية النشاط العمراني وتطويعه لدعم الحق ومساندة الخير؟

الحق المر أن الفساد السياسي من وراء هذه البلبلة الفكرية ، فإن الرجل التقي قد يحاول مرضاة الله بكلمة صادقة صريحة ، فإذا هو يدفع رأسه ثمنها!! وقد يؤثل لنفسه وبنيه مالا! فإذا مصادرة جائرة تجتاح كل ماجمع! وقد يبرز في ميدان ثقافي أو أدبي أو صناعي فإذا هو يساوم : أيعطي ولاءه للحاكم الفذ ، أم يختفي؟ أما الحياد فلا!! . .

الفرار من هذا البلاء أولى ولو إلى مجالس ذكر تبتدع! أو خلوات قصية تقصد ، ويعتزل بها المجتمع!

عندما أقرأ في بعض
ومصدر رزقه
التكاليف

اللهم احرسنى بعينك التى لاتنام ، واكنفـ
بقدرتك علىَّ ، أنت ثقتى ورجائى! . .

فكم من نعمة أنعمت بها علىَّ قل لك بها شكر

وكم من بلية ابتليتنى بها قل لك عندها صبرى!

فيامن قلَّ عند نعمته شكرى فلم يحرمنى ، ويامن
يخذلنى ، ويا من رآنى على المعاصى فلم يفضحنى! أسـ
محمد وآله ، وأن تعيننى على دينى بدنياى وعلى آخرتى بـ

واحفظنى فيما غبت عنه ، ولا تكلنى إلى نفسى فيما حضـ
يامن لاتضره الذنوب ، ولاتنقصه المغفرة ، هب لى ما لا ينقـ ـت ، واغفر لى ما لايضرك! . .

يا إلهى أسألك فرجا قريبًا وصبرًا جميلا ، وأسألك العاقبة من كل بلية ، وأسألك الشكر على العافية ، وأسألك دوام العافية ، وأسألك الغنى عن الناس ، ولاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . .

إن هذا الدعاء نقلنى من حال إلى حال ، وشعرت بأن الرجل ينطق بلسانى ويترجم عن جنانى ، وغالبت أنينا دار فى فؤادى ، وفاضت به عيناى! . .

إن الذكر ليس صياح فم ، وإنما هو خشوع قلب ، واستكانة عبد إلى سيده ، وعمله له دون مَنٍّ أو خيلاء! ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(١) .

وعدت إلى نفسى أفكر فى الطرق الصوفية! ما أشك أن للعوام حماقات مرفوضة ، وأن حلقات الذكر التى تجمعهم بدع سيئة ، بل إن لخواصهم كلمات يعاقب عليها ، ولايصدقها عقل أو نقل . . لكن أيضًا لبعض العلماء الرسميين ، قلوب مغلقة ودنيا مؤثرة ، وطباع تنبعث عنها روائح منكرة . . فهل يضيع الدين بين هذه المتناقضات؟ . .

لماذا تكون لبعض المخلصين جهالات مردودة؟ ولبعض المتفيهقين مقاصد مغشوشة؟ لماذا لايصطلح العقل والقلب ، أو العلم والتربية ، أو الذكاء والإخلاص ، فيصلح الإنسان بجوانبه كلها؟ . .

(١) الحجرات : ١٧ .

لقد كان المهندس «سنمار» ماهرًا فى فن البناء ، فلمّا أبدع قصرًا لأحد شيوخ القبائل كى يتطاول فيه ، رأى الشيخ الكبير أن سنمار قد يبنى مثله لغيره!

فيشاركه العظمة ، فماذا يصنع؟ ألقى بسنمار من سطح القصر ، ليبقى القصر وحيدا للرجل الوحيد! .

إن جنون العظمة لايقف عند حد ، وهو قمين إذا استبد أن يهلك الدين والدنيا معًا . .

واعتقادى أن الفساد السياسى من وراء انهيار الأمة الإسلامية ، وضياعها دنيا ودينًا .

لقد بقيت صور العبادات الشخصية ، بل زاد حجم هذه العبادات بالبدع التى اخترعها أهل البطالة وأقبل عليها الرعاع ، يتمايلون ويتراقصون . . أما العبادات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وسائر الأنشطة الحضارية ، فقد اعتلت ، ثم توقفت ، فلما جاء العصر الأخير كنا فى ذيل العالم نترنح ، أما الحكام الأكارم ففى ظل ممدود وماء مسكوب . .

وهمس فى أذنى رجل صالح ، قال : دعنى من سخريتك هذه! وسأقرأ عليك صفحة فيها خير كثير . . قلت : اقرأ فأنا إلى خير الله فقير!

قال : كتب محمد المواق وفقه الله : الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، قال الله سبحانه وتعالى لسيد خلقه : (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون) وأنا ـ أيها الإنسان ـ قد ضاق صدرى بما يقول الناس ، لكن قال تاج الدين : متى توجه الناس بالذم إليك فارجع إلى علم الله فيك ، فإن كان لايقنعك علمه ، فعدم قناعتك بعلم الله أعظم من وجود الأذى منهم .

وأنا ـ أيها الإنسان ـ بالنسبة إلى مابينى وبين ربى غير راض ـ والله ـ عن نفسى! والله ما أرضى حياتى لمماتى! ولا نفسى لربى! فلا صواب لى أن أعتب على الناس!! . .

وأما بالنسبة إلى ماينقم الناس منى ، فما ندمت على ما كتبت ، ولا أستغفر الله منه!! . ولا أقدم اعتذارًا للناس على قول أرضيت به ربى! .

اللهم أغننى برحمتك عن بركاتهم . اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ؛ أنت كما أثنيت على نفسك .

عندما أقرأ فى بعض كتب التصوف يتملكنى الشعور بأن مسافرًا ترك عمله ، ومصدر رزقه إلى بلد ناء يستجم فيه ، ويتخلص من قيود الواجبات وعناء التكاليف! هل هذه النشوة العاطفية هى الصورة الكاملة أو الصحيحة للحياة كلها؟ . .

بل السؤال الأول ، هل هذا الانقسام موجود فى مفهوم الدين عندما تقرأ القرآن الكريم أو عندما تطالع السيرة ، وكتب السنة؟ لا ، لا انقسام ولا تفاوت ، فالنية شرط لكل عمل مقبول وذكر الله إطار لابد منه حتى يستحق العمل الاحترام والثواب! . .

ويخالط هذا الذكر كل شئون الحياة بدءا من عمل الفلاح فى حقله إلى عمل الحاكم فى ديوانه ، وتسأل : ما هذا الذكر؟ وأجيب : ماصنعه عمر بن الخطاب عندما خطب الناس يومًا فذكر لهم تفاهة حرفته صدر حياته وكيف كان أجيرا لايؤبه له! فلما نزل من المنبر قال له عبد الرحمن بن عوف : مازدت على أن هجوت نفسك! فقال عمر : ذاك ماقصدت! إن نفسى تطاولت فأحببت أن أقمعها . .

هذا حاكم يفهم بعمق معنى قوله سبحانه ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[1] . . إنه سياسى كبير يحمل فؤاد عابد كبير ، إنه لن يتفرعن يوما وهو يحمل بين حناياه هذا القلب! . .

(١) القصص : ٨٣ .

٧٢. لماذا أوصى الإسلام بصلاة الجماعة وفرض صلاة الجمعة؟

الصلاة جزء من النشاط الإسلامى فوق كل أرض يعمرها الإسلام ، والمسجد هو السمة الأولى للحضارة الإسلامية فى كل قرية أو مدينة .

وعندما ينجح المؤمنون فى إقامة مجتمعهم بعيدًا عن إذلال الفتانين وعماية الكافرين ، فإن أول عمل يفكرون فيه ويبادرون إليه هو إقام الصلاة ، استجابة للآية الكريمة : ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ﴾[1] .

وقد حاول البعض أن يدخل فى الإسلام متخففًا من الصلاة ، فأبى الرسول إباء جازمًا وهو يقول : «لا خير فى دين بلا صلاة..» .

ونبه القرآن الكريم إلى أن المدنيات التى تفسخت وبادت هى تلك المدنيات التى جفت فيها ينابيع الروحانية ، وهيمنت عليها الشهوات المادية ، وانقطعت بالله صلتها ، فقطع عنها بركته! . .

قال تعالى فى وصف هذه الأجيال المنحلة :

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾[2] .

إن ارتباط العفة والاعتدال بالصلاة مفهوم ، واشتداد السعار الحيوانى مع البعد عن الله واقع ، ولن تكسب الحضارات المغرقة فى المادة إلا الصراع على الوهم والهلاك وراء سراب يلمع ولا غوث فيه! . .

وقد أوصى الإسلام بالانطلاق إلى المسجد خمس مرات كل يوم ، وحافظ المسلمون على ذلك حتى قال ابن مسعود : «لقد رأيتنا وما يتخلف عن الصلاة إلا

(١) الحج : ٤١ . (٢) مريم : ٥٩ .

منافق قد علم نفاقه أو مريض وقال : إن رسول الله علمنا سنن الهدى وإن من سنن الهدى الصلاة فى المسجد الذى يؤذن فيه» .

ويظهر أن أعداء الإسلام على عهد الوحى غاظهم هذا المنظر المهيب المتكرر بالغدو والآصال ، منظر المسلمين وهم يجيئون من أطراف المدينة ليصلوا وراء نبيهم ، ما تنفض لهم جماعة حتى تقوم أخرى ، ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾[1] .

فماذا يصنعون؟ أخذوا ينفسون عن ضغائنهم بالغمز واللمز ، وربما تضاحكوا ، وعقدوا المجالس عند سماع الأذان ، وقيام الجماعات ليرسلوا التعليقات الساخرة! وهذا مسلك شرير يمكن تركه! . .

ونزل الوحى يطالب المؤمنين أن يقاطعوا هؤلاء العابثين ، وأن يتجهموا لهم ، وهذا أقل مايمكن عمله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾[2] .

ما الذى جمع اليهود ، وعبدة الأصنام ، والمنافقين على التندر بالدين الجديد والنيل من شعائره؟ إنما الإيغال فى الكفر والتحدى!

وكره النبى ﷺ أن يقابل الإسلام بهذا المجون ، وأن تنال شعائره بهذا العبث ، وأن يجد المنافقون ظهيرًا لهم من بين الكفار يساعدهم على النيل من المسلمين بهذا الأسلوب الدنىء ، فأرسل هذا التحذير الذى بلغ صداه القوم فأقض مضاجعهم ، قال : «لقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام، ثم آمر رجلاً يصلى بالناس، ثم أنطلق معى رجال معهم حزب من حطب إلى قوم لايشهدون الصلاة، فأحرق عليهم بيوتهم» .

وكانت أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر! . . ولا ريب أنهم المعنيون بالتهديد السابق! فإن اليهود والنصارى لايكلفون بصلاة! . .

(١) النساء : ١٠٣ .　(٢) المائدة : ٥٧ ، ٥٨ .

وليس معنى الحديث أن تجميع الناس للصلاة يتم بالتهديد ، فذاك مستحيل لأن جمهرة المؤمنين كانوا ابتغاء وجه الله يهرعون إلى المسجد كلما سمعوا النداء ، وكان أملهم ادخار الأجر العظيم عند الله . قال ابن مسعود : «إن كان المريض ليمشى بين الرجلين ـ يحملانه لمرضه ـ حتى يأتى الصلاة ، وكان أبعد الناس ممشى يحتسب خطاه عند الله ، ويحرص على الانتظام فى الصفوف» . .

لكن من حق المؤمنين عند إقام الصلاة فى الجماعات العامة ، ألا تنتظم جماعات أخرى للعبث ، وألا تنعقد مجالس لجد أو هزل ، وألا تقام أسواق للشغب . .

وقد لاحظ الناس عند عقد اجتماعات الهدنة بين المصريين واليهود أن اليهود كانوا يتحرون أيام الجمعة للمفاوضات وكأنهم يريدون عمدا انتهاك وقت الجمعة ، وإضاعة شعائرها!!

وتهديد الساخرين والماجنين بالتحريق عليهم ترك أثره ، ولم يؤثر قط عن النبى الكريم ، أو أيام الخلافة الراشدة ، أن وقع شىء من ذلك ، وقد شرحنا ملابسات هذا التهديد كما جاءت فى الكتاب العزيز ، فلا مجال للاستحقاق ، والقول بأن الإسلام يأمر بإحراق المتخلفين عن الصلاة!! . .

عن أم الدرداء قالت : دخل علىَّ أبو الدرداء وهو مغضب! فقلت : ما أغضبك؟ قال : والله ما أعرف من أمر أمة محمد ﷺ شيئًا إلا أنهم يصلون جميعا . .

وعن أنس ، قال رسول الله ﷺ : «إنى لأدخل فى الصلاة، وأنا أريد أن أطيلها، فأسمع بكاء الصبى فأتجوز فى صلاتى. أخففها. لما أعلم من وجد أمه من بكائه» .

وعن أم سلمة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا سلم ـ من صلاته يمكث فى مكانه يسيرا ، فنرى والله أعلم أن مكثه لكى ينصرف النساء قبل أن يدركهن الرجال .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها» وظاهر أن الوصف بالشر لمن يحاوش من الجنسين أن يقترب من الآخر! أما من لايجول بخاطره شىء يريب فلا يلحقه إثم ، والمراد توفير جو الطهر والتقوى فى المسجد .

وهذه الآثار المتتابعة قليل من كثير من السنن الدالة على أن المسجد كان يستقبل الأمة كلها ، وإن إقصاء النساء عنه لم يعرف فى سلف الأمة ، بل كانت روحانية المسجد وثقافته تسريان على امتداد الشوارع وداخل البيوت . .

وإذا كانت الجماعة للصلوات الخمس سنة مؤكدة ، فإن حضور الجمعة فرض عين على كل مسلم قادر . قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(1) .

وعن عبدالله بن عمرو ، قال رسول الله ﷺ : «**يحضر الجمعة ثلاثة نفر: فرجل حضرها يلغو، وهو حظه منها!! ورجل حضرها يدعو، فهو رجل دعا الله إن شاء أعطاه وإن شاء منعه، ورجل حضرها بإنصات وسكوت ولم يتخط رقبة مسلم ولم يؤذ أحداً، فهى كفارة له إلى الجمعة التى تليها وزيادة ثلاثة أيام، إن الله تعالى يقول** :

﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾(2) .

وقال على بن أبى طالب وهو يخطب على منبر الكوفة ـ إذا كان يوم الجمعة : غدت الشياطين براياتها إلى الأسواق ، فيرمون الناس بالربائث ـ الربيثة ما يعوق المرء عن عمله ويصرفه عن واجبه ـ ويثبطونهم عن الجمعة! وتغدو الملائكة فيجلسون على أبواب المسجد يكتبون الرجل من ساعة والرجل من ساعتين! حتى يخرج الإمام . . فإذا جلس الرجل مجلسًا يستمكن فيه من الاستماع والنظر ، فأنصت ولم يلغ كان له كفلان من الأجر! فإن نأى وجلس حيث لايسمع فأنصت ولم يلغ كان له كفل من أجره! وإن جلس مجلسا يستمكن فيه من الاستماع والنظر فلغا ولم ينصت كان عليه كفلان من وزر . فإن جلس مجلسا لايستمكن فيه من الاستماع والنظر ، فلغا ولم ينصت ، كان عليه كفل من وزر ، ومن قال لصاحبه يوم الجمعة : صه! فقد لغا ، ومن لغا فليس له فى جمعته تلك شيء! .

ثم قال فى آخره : سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك .

والجمعة شعيرة ترجح أعظم أجهزة الدعاية التى وصل إليها العالم ، وإذا كان المسلمون الآن ألف مليون نسمة ، فمفروض أن تلقى بينهم خطب بين المليون

(1) الجمعة : ٩ .   (2) الأنعام : ١٦٠ .

والمليونين كل أسبوع! يقوم رجل موجه فيتحدث باسم الله إلى عباده ، يقول مالديه ، والمصلون صامتون يصغون لما يقال ، لايتشاغل عنه أحد ، ولا ينصرف من مكانه حتى يسمع الخطبة كلها ويؤدى الصلاة !! .

إن أمة هذه نظمها ينبغى أن تتوحد صيغتها ووجهتها ، وأن يرقى مستواها الفكرى والعاطفى ، وأن تغالب أسباب التفكك والفرقة . .

وأكره أن تكون الخطبة تحرشا شخصياً ، أو تهجمًا سياسياً ، أو تعليقًا مقصورًا على الأحداث العابرة ، فإن المساجد لم تبن لشىء من هذا ، وتشريع الخطبة كما جاء فى القرآن الكريم :

﴿ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾(1) . .

والذكر المقصود ربط الناس بربهم من خلال النظر فى آفاق الكون وشئون الناس على نحو ماوضح القرآن الكريم :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾(2) .

وتطويل الخطبة غير سائغ ولا مشروع ، فعن أبى وائل قال : خطبنا عمار بن ياسر فأوجز وأبلغ فلما نزل قلنا : يا أبا اليقظان لقد أبلغت وأوجزت ، فلو كنت تنفست ـ أطلت! فقال : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنة من فقهه! . علامة . فاقصروا الخطبة وأطيلوا الصلاة**» .

وكانت أكثر خطب رسول الله من القرآن الكريم ، ولذلك لم تحفظ عنه خطب من كلامه عليه الصلاة والسلام ، إلا على ندرة . . وعن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت «ما أخذت ق والقرآن المجيد ـ حفظتها ـ إلا من لسان رسول الله ﷺ يوم الجمعة يقرأ بها على المنبر فى كل جمعة» كانت قد شهدتها . . والمفروض أن خطبة الجمعة نحو خمسمائة مرة بعد هجرته عليه الصلاة والسلام . .

(1) الجمعة : ٩ .   (2) فصلت : ٥٣ .

٧٣. ماذا تقترحون لرفع مستوى الخطبة ودعم رسالة المسجد؟

المسجد قلب المجتمع الإسلامى، وملتقى المؤمنين بالغدو والآصال لأداء حقوق الله، واستلهام الرشد، واستمداد العون منه جل شأنه.

وهو مصدر طاقة عاطفية وفكرية بعيدة المدى خصوصًا أيام الجمع عندما تنصت جماهير المصلين فى سكينة وخشوع «للإمام» وهو يشرح لهم تعاليم الإسلام ويبين لهم حدود الله، ويفقههم على ما فى الكتاب والسنة من عظات وآداب.

إن خطبة الجمعة من شعائر الإسلام الكبرى، ومعانيها تنساب إلى النفوس من لحظات انعطاف إلى الله وتقبل لوصاياه.

ومن ثم كان موضوعها جليل الأثر كبير الخطر..

والإمام الذى يدرس موضوعه: ويجيد عرضه، يقوم بتصيب ضخم فى تثقيف الأمة، وترشيد نهضتها، ودعم كيانها المادى والأدبى، ووصل غدها المأمول بماضيها المجيد..

لما كنا نريد الوصول بمستوى الخطابة فى المسجد إلى مكانته اللائقة به، ونريد جعل المنبر مرآة لما حوى الإسلام من معرفة صالحة وتربية واعية، فقد أثبت هذه التوجيهات الموجزة لما ينبغى أن يتوافر فى خطبة الجمعة من زاد روحى وثقافى منظم.

١ ـ يحسن أن يكون لخطبة الجمعة موضوع واحد واضح غير متشعب الأطراف ولا متعدد القضايا، فإن الخطيب الذى يخوض فى أحاديث كثيرة يشتت الأذهان وينتقل بالسامعين فى أودية تتخللها فجوات نفسية وفكرية بعيدة، ومهما كانت عبارته بليغة، ومهما كان مسترسلا متدفقا فإنه لن ينجح فى تكوين صورة عقلية واضحة الملامح لتعاليم الإسلام.

والوضوح أساس لابد منه فى التربية، والتعميم والغموض لاينتهيان بشىء طائل، وخطبة الجمعة ليست درسًا نظريًا بقدر ماهى حقيقة تشرح وتغرس.

٢ ـ عناصر الخطبة يجب أن يسلم أحدها إلى الآخر فى تسلسل منطقى مقبول كما تسلم درجة السلم إلى مابعدها دون عناء بحيث إذا انتهى الخطيب من إلقاء

كلمته كان السامعون قد وصلوا معه إلى النتيجة التى يريد بلوغها. وعليه أن ينتقى من النصوص والآثار ما يمهد إلى هذه الغاية.

٣ ـ ولما كانت الخطبة الدينية تنسج من المعانى الإسلامية المستمدة من «الكتاب والسنة» وآثار السلف الصالح فإن لحمتها وسداها يجب أن يكونا من الحقائق المقبولة. وفى آيات القرآن الكريم، ومعالم السنة المطهرة متسع يغنى فى الوعظ والإرشاد. ولذلك لايليق البتة أن تتضمن الخطبة الأخبار الواهية بله الموضوعة.

وإذا كان العلماء قد تجوزوا فى الاستشهاد بالأحاديث الضعيفة فى فضائل الأعمال فقد اشترطوا لذلك: ألا تخالف قواعد الإسلام الكلية ولا أصوله العامة. وفى الأحاديث الصحيحة والحسنة مجال رحب للخطيب الفاقه. وفى سيرة الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين والأئمة المتبوعين ما يغنى عن الأساطير والأوهام.

٤ ـ لايجوز أن تتعرض الخطبة للأمور الخلافية، ولا أن تكون تعصبا لوجهة نظر إسلامية محدودة.. فإن المسجد يجمع ولا يفرق، ويلم شمل الأمة بشعب الإيمان التى يلتقى عندها الكل دون خوض فى المسائل التى يتفاوت تقديرها. وما أكثر العزائم والفضائل التى تصلح موضوعًا لنصائح جديدة وخطب موفقة. وقد شقى المسلمون بالفرقة أيامًا طويلة وجدير بهم أن يجدوا فى المساجد ما يوحد الصفوف، ويطفئ الخصومات.

٥ ـ بين الخطبة والأحداث العابرة، والملابسات المحيطة، والجماهير السامعة، علاقة لايمكن تجاهلها وبما يزرى بالخطيب ويضيع موعظته أن يكون فى واد، والناس والزمان والمكان فى واد آخر..

ولأمر ما نزل القرآن منجما على ثلاث وعشرين سنة، فقد تجاوب مع الأحداث وأصاب مواقع التوجيه إصابة رائعة.

ولما كان القرآن شفاء للعلل الاجتماعية الشائعة، فإن الخطيب يجب عليه أن يشخص الداء الذى يواجهه، وأن يتعرف على حقيقته بدقة. فإذا عرفه واستبان أعراضه وأخطاره رجع إلى الكتاب والسنة فنقل الدواء إلى موضع المرض. وذلك يحتاج إلى بصيرة وحذق، فإن الواعظ القاصر قد يجىء بدواء غير مناسب فلا يوفق فى علاج، وربما أخطأ ابتداء فى تحديد العلة فجاءت خطبته لغوا وإن كانت تتضمن مختلف النصوص الصحيحة.

٦ ـ هناك طائفة من الأحاديث تسوق الأجزية الكبيرة على الأعمال الصغيرة .. وقد قرر العلماء المحققون أن هذه الأحاديث ليست على مايفهم منها لأول وهلة .. وأن مافيها من أجزية ضخمة إنما هو لأهل الشرف فى العبادة وأهل الصدق فى الإقبال على الله .. وليس ذلك للأعمال الصغيرة التى اقترنت بها .

ومن هنا لايجوز للخطيب أن يضمن خطبته هذه الأحاديث سردًا مجردًا ، فيحدث فوضى فى ميدان التكاليف الشرعية ، ولكن إذا قضى ظرف بذكر هذه الأحاديث ذكرها مع شروحها الصحيحة .

٧ ـ تقوم التربية الدينية على بيان الجوانب الخلقية والاجتماعية فى الإسلام وشرح مايقترن بالخير والشر من معان حسنة أو سيئة ، ومن عواقب حميدة أو ذميمة .. ولا بأس من التعريج على الأجزية الأخروية وعرض ما أعده الله فى الآخرة للأبرار والفجار ، بيد أن الإسهاب والتفصيل فى ذكر الأجزية المغيبة لا لزوم له ويكتفى بالإلماح إلى ما جاء فى القرآن والسنة عن ذلك دون تطويل وتعمق .

٨ ـ من الخير أن تتضمن خطبة الجمعة أحيانًا شيئًا من أمجاد المسلمين الأولين الثقافية والسياسية وتنوبها بالحضارة اليانعة التى أقامها الإسلام فى العالم مع الإشارة ، إلى أن ينابيع هذه الحضارة تفجرت من الحركة العقلية التى أحدثها القرآن الكريم ، واليقظة الإنسانية التى صنعها الرسول ﷺ ، ويكون الغرض من هذه الخطب ـ على اختلاف موضوعاتها ـ أن ترجع إلى المسلمين ثقتهم بأنفسهم ورسالتهم العالمية .

٩ ـ معروف أن هناك فلسفات حسية ونزعات أجنبية ونزعات إلحادية تسربت إلى الأمة الإسلامية فى كبوتها التاريخية الماضية وطبيعى أن تتعرض الخطبة لذود هذه المفاسد النفسية عن أبناء الأمة ، ووظيفة الخطبة فى الإسلام عندئذ أن تتجنب الأخذ والرد والجدال السيئ .. ولكن تعرض الحقائق الإيجابية فى الإسلام بقوة ، وترد على الشبهات دون عناية بذكر مصدرها لأن المهم هو حماية التراث الروحى والعلمى .. وليس لهم تجريح الآخرين وإلحاق الهزائم بهم .

١٠ـ قبل أن يواجه الخطيب الجمهور ينبغى أن تكون فى ذهنه صورة بينة لما يريد أن يقوله ، بل يجب أن يراجع نفسه قبل الكلام ليطمئن اطمئنانًا كاملاً إلى صحة القضايا التى سوف يعرضها ، وإلى سلامة آثارها النفسية والاجتماعية .

وعليه أن يتثبت من الأدلة والشواهد التى يسوقها فى معرض الحديث ، فإن كان قرآنا حفظه جيدًا وإن كان سنة رواها بدقة ، وإن كان أثرًا أدبيًا أو خبرًا تاريخيًا فإن توفيقه يكون بحسب مطابقته أو اقترابه من الأصل المنقول عنه .

إن التحضير المتقن دلالة احترام المرء لنفسه ولسامعيه ، وقد تفجأ الإنسان مواقف يرتجل فيها مايلقى به الناس ويصور مابنفسه .

والواقع أن القدرة على الارتجال تجيء بعد أوقات طويلة من الدربة على التحضير الجيد ، وعلى تكوين حصيلة علمية مواتية لكل موقف .

ومع ذلك فإن المهارة فى الارتجال لاتغنى عن حسن التحضير للعالم الذى يريد أداء واجبه بأمانة وصدق ، والذى يقدر إنصات الناس له واحتفاءهم بما يقول .

١١ـ الإيجاز أعون على تثبيت الحقائق ، وجمع المشاعر والأفكار حول مايراد بثه من تعاليم .

فإن الكلام الكثير ينسى بعضه بعضًا ، وقد تضيع أهم أهدافه فى زحام الإطناب والإفاضة .

ألا ترى الأرض تحتاج إلى قدر محدد من البذور كيما تنبت ، فإذا كثر النبات بها تخللها الفلاح باجتثاث الزائد حتى يعطى البقية فرصة النماء والإثمار .

كذلك النفس البشرية لاتزكو فيها المعانى إلا إذا أمكن تحديدها وتقويمها ، أما مع كثرة الكلام وبعثرة الحقائق ، فإن السامع يتحول إلى إناء مغلق تسيل من حوله الكلمات مهما بلغت نفاستها .

وللإطناب الممل أسباب معروفة منها سوء التحضير ، فإن الخطيب الذى يلقى الناس بالجزاف من الأحكام والتوجيهات لايدرى بالضبط أين بلغ قوله ، وهل وصل إلى حد الإقناع أم لا فيحمله ذلك على التكرار والإطالة .. وما يزداد من الجمهور إلا بعدا ..

وقد تنشأ الإطالة عن سوء التقدير للوقت والمواقف ، فيظن الخطيب أن بحسبه أن يقول ماعنده وعلى الناس أن ينصتوا طوعًا أو كرهًا ـ وهذا خطأ .

ومما يحكى فى قيمة الإيجاز أن أحد الرؤساء طلب منه إلقاء خطبة فى بضع دقائق فقال : «أمهلونى أسبوعًا» فقيل له : نريدها فى ربع ساعة قال : «أستطيع بعد يومين» قيل له : فإذا طلبناها فى ساعة؟ قال : «فأنا مستعد الآن» .

إن الإيجاز يتطلب الموازنة والاختيار والمحو والإثبات . أما الكلام المرسل فالجهد العقلى فيه أقل ، والحقيقة أن خمس دقائق تستوعب علمًا كثيرًا ، وعشر دقائق وخمس عشرة دقيقة تستوعب خطبة أو محاضرة جيدة .

٧٤. ما الحكمة فى قيام الليل؟ وكيف يكون؟

لابد من تمهيد لهذا الموضوع، وللموضوع الذى يجىء بعده، نتحدث فيه عن الأوج الذى رفع محمد صحبه إليه، وثبتهم - صلوات الله وسلامه عليه - فى رباه! لقد اتفق الدارسون لشخصية محمد على أن قدراته الروحية خارقة للعادة، وأنه يخطف البصائر بطيب نفسه وعظمة خلقه ووهج مشاعره، وأنه استطاع بالقرآن الكريم أن يشرح صدورا ويوسع آفاقا، وينقل جيلا من البشرية الضيقة إلى الربانية الرحبة المشرقة!..

إن الجيل الذى رباه محمد كان جيلا محسنا يعبد الله كأنه يراه، شجاعًا يركل الدنيا بقدمه ويمضى ثابت الخطا إلى ربه، كريمًا لايحرص على مال، بل مايعطيه لله أحب لديه مما يستبقيه لنفسه، مقيما للصلاة ينتظم فى صفوفها برغبة وخشوع، ويحافظ على أوقاتها فى الصحة والمرض والسلم والحرب..

هذا الجيل تلقى الحق وصانه وسلمه إلى من بعده فى وفاء وفداء لم تعرف الدنيا لهما نظيرًا فى تاريخها الطويل!

إن الملائكة لتنظر بإعجاب إلى هؤلاء الأصحاب! بل إنها لتحفهم وهم يجاهدون، تتنزل عليهم وهم يتهجدون! ما أحسبها - وهى ترقب الأرض من قديم - رأت خيرًا منهم، حاشا أنبياء الله السابقين!..

من أجل ذلك لم أحس باستغراب عندما قرأت فى الصحاح هذين الخبرين..

عن أسيد بن حضير ﷺ قال: «بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة - وفرسه مربوطة عنده - إذ جالت الفرس، فسكت، فسكنت! فاستأنف القراءة فجالت، فسكت فسكنت الفرس! ثم قرأ فجالت، وكان ابنه يحيى قريبًا منها فانصرف فأخره - أبعده عن قوائمها - ثم رفع رأسه إلى السماء، فإذا مثل الظلة، فيها أمثال المصابيح! فلما أصبح حدث النبى ﷺ - بما رأى - فقال له: **أو تدرى ما ذاك؟** قال لا.. قال: **تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت** - تابعت التلاوة - **لأصبحت ينظر إليها الناس ما تتوارى منهم»!..**

قلت: ما الغرابة؟ ملائكة السماء اقتربت من ملائكة الأرض الذين يقومون الليل بالقرآن.

وقد تكررت هذه القصة لغير أسيد، وسواء استبعدها الماديون أو قبلوها، فإن من يناجى الله بكتابه والناس نيام له مكانة خاصة، وقد جاء فى الحديث **«ماأذن الله بشىء - أى ما أنصت - أذنه - أى إنصاته - لعبد يقرأ القرآن فى جوف الليل، وإن البر ليذر على رأس العبد مادام فى مصلاه.. وماتقرب العباد إلى الله تعالى بمثل ماخرج منه».**

قال أبو النضر: يعنى القرآن، منه بدأ الأمر به، وإليه يرجع الحكم فيه..

والناس عادة ينطرحون فى فرشهم يحسبون النوم غيبوبة تتخللها أضغاث الأحلام، وغرائز الأجهزة الدنيا أو وساوسها! لكن هناك ناسا آخرين رسب فى أعماقهم إجلال الله، والتوجه إليه، يشبه نومهم نوم المشوق إلى غائب أو الباحث عن حقيقة!!..

فإذا نابتهم يقظة خلال الرقاد، اتجهوا إلى الغائب المشوق، أو الصواب المنشود!..

صور الحديث الشريف حال هؤلاء فى قوله ﷺ: **«من تعار من الليل - أى استيقظ - فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شىء قدير، الحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: اللهم اغفر لى، أو دعا استجيب له، فإن توضأ وصلى قبلت صلاته»!!..**

شتان بين نائم مغمى عليه، مايحركه إلى ربه شىء، وبين آخر يستجم بنومه، ويسبح بحمد ربه كلما عاد إليه وعيه! الصنفان موجودان فى الدنيا، والفارق بينهما شاسع ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (1)..

وقيام الليل فريضة على النبى وحده، إن الإحساس بالله نهر جار فى شعوره لايتوقف أبدا! فى وضح النهار أو فى جنح الليل لايرى محمد إلا موصول القلب بالله!..

وهو بهذا الذكر الدافق فى حسه، المستولى على نفسه ينضح على من حوله، ويصل الأرض بالسماء طهرًا وضوءًا، مستجيبًا لقول الله:

---

(1) الزمر: ٩.

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾(١) .

وقد حاول نفر من أصحابه أن يتابعوه فى هذا النهج ، لشدة حبهم له ورغبتهم فى تقليده ، غير أن الله سبحانه رحم ضعفهم ، وحط عنهم ماجشموا به أنفسهم ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾(٢) .

ذلك بالنسبة إلى الأصحاب ، أما الرسول نفسه فبقى قيام الليل كله من خصائصه ، وقد كان ينبعث إلى هذا القيام عن حب ورغبة لا عن تكلف وعنت ، كان عميق الشعور بنعمة الله عنده ، واصطفائه له ، وإلى ذلك يشير عبدالله بن رواحة بقوله :

وفينا رسول الله يتلو كتابه	إذا انشق مكنون من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا	به موقنات أن ما قال واقع
يبيت يجافى جنبه عن فراشه	إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

فى الأيام الأولى للبعثة قيل له : ﴿ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾(٣) وقد استجاب لأمر الله حتى لحق بالرفيق الأعلى! . .

أما جمهور الأمة فلم يكلف بذلك ، فليس القيام فى حقه فريضة لازمة ، ولا سنة مؤكدة ، وهو نافلة مقبولة ممن يؤثر فيهم السهر ، ولايعجزهم عن أداء واجباتهم طوال النهار! .

حسبهم ما يستطيعون قراءته بالليل ، وأمامهم سبح طويل بالنهار ﴿ ... عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾(٤) .

(١) الإسراء : ٧٨ ، ٧٩ . (٢) المزمل : ٢٠ .
(٣) المزمل : ٢ ـ ٤ . (٤) المزمل : ٢٠ .

والواقع أن الجهاد العسكرى والاقتصادى يحتاج إلى يقظة ونشاط ، والتفريط فى هذا أو ذاك مضيعة للأمة .

ورأيت ناسا يقومون الليل أحيانا ، ثم يجيئون إلى مكاتبهم ثقالا يترنحون ، فزجرتهم عن هذا المسلك ، وشرحت لهم الحكم! ومع ذلك فما كانوا يسمعون! . .

وقد رويت فى الأمر بالقيام أحاديث ضعيفة مثل ماجاء عن بلال أن رسول الله ﷺ قال : **«عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم وقربة إلى ربكم، ومنهاة عن الآثام، وتكفير للسيئات، ومطردة للداء عن الجسد»** .

ومع مافى سند الحديث من ضعف ، فإننا نحمله على ماورد فى الصحاح مثل حديث عثمان رضى الله عنه عن النبى ﷺ : **«من صلى العشاء فى جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الصبح فى جماعة فكأنما صلى الليل كله»** ذلك أن النهوض للفجر فيه مقاومة للنوم ، ومشى فى الظلمة ، واستفتاح للنهار بالخير قبل أن تطلع الشمس بوقت ، وكذلك الانتظام فى جماعة العشاء ، وكانت قديمًا تتأخر ، حتى تغمض عيون البعض فى انتظارها .

وسئلت عائشة رضى الله عنها : أى حين كان يقوم الرسول ﷺ من الليل؟ فقالت : إذا سمع الصارخ ـ تعنى الديك ـ ! .

وما فهمناه وافق ولله الحمد ما رواه أبو داود عن أنس فى تفسير قوله تعالى : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾(١) .

قال : نزلت فى انتظار الصلاة التى تدعى العتمة ـ يعنى العشاء ـ كانوا يتنقلون بين المغرب والعشاء . .

وزيادة فى إيضاح الموضوع نذكر أن الجسد البشرى يحتاج إلى ساعات معينة ينام فيها ، ويستعيد قواه ، ويستحيل أن يستغنى عن هذه الساعات التى قدرها الأطباء بثمانى ساعات أو أكثر أو أقل حسب الأعمار المختلفة . .

والقرآن الكريم يقر هذه الحاجة الطبيعية ، ويلفت الأنظار إلى أنها من آثار اختلاف الليل والنهار ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾(٢) . . ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾(٣) . .

(١) السجدة : ١٦ . (٢) يونس : ٦٧ . (٣) النبأ : ٩ ـ ١١ .

وقد تنشأ أحوال يجب فيها العمل بالليل ، في ظروف السلم والحرب جميعًا ، فعلى المرء أن يقوم بواجبه ، وسيطاوعه جسمه مع تعويض يرد إليه مابذل . .

وهناك ناس لهم طاقة على العمل الكثير ، مع الاكتفاء بنوم قليل! كما أن هناك من فى أعصابه مدخر من النشاط يستطيع به أن يضم إلى عمل النهار جزءاً من الليل . .

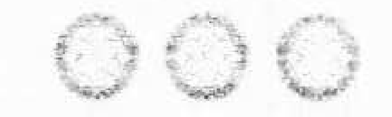
وهنا نؤكد أمورًا ، أن اليوم الإسلامى يبدأ مع الفجر ، فكل سهر يضيع صلاة الفجر مرفوض! وهناك قلة من الرجال تستطيع الجمع بين طول التهجد بالليل ، وطول الكدح بالنهار ، وهذه قلة لايقاس عليها ! . .

وقد يستطيع البعض أن يقرأ نصف القرآن فى ليلة ثم يستقبل نهاره باسترخاء لايساعده على أداء واجب ، هذه معصية ! لقد تلا ألفاظا لم يتدبرها وأهمل واجبات ترتبط بها حياته وحياة أمته ! . .

وأوغل فى المخالفة من يبيت يردد بعض أسماء الله الحسنى ، ثم يصبح كليل التفكير لايحسن شأنا فى دنيا أو دين!! . .

إن عمر بن عبد العزيز سرح فكره فى آية واحدة ظل يرددها طوال الليل ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾(١) ! لأن دقة إحساسه جعلته يتصور - وهو أمير المؤمنين - أنه الموقوف المسئول ، فطار النوم من عينه! . .

ولو أن قاضيا سهر فى قضية يتحرى الحكم العادل ، أو مجتهد سهر فى موضوع يبحث فيه عن الصواب ، لكان أولى بالله من قارئ لايعى ، أو قائم نائم الضمير والتفكير .



(١) الصافات : ٢٤ .

٧٥. كيف ولماذا اختير الأذان للصلاة؟ ولماذا لم يأت عن طريق الوحى مباشرة؟

لا أرى كلمات أحق بالسماع وأولى بالتأمل من كلمات الأذان ، ولا أرى داعيًا أقرب إلى الرشد من المؤذن . . إن الكلمات الجهيرة المدوية فى الآفاق ، تذكير بالله وحقوقه ، تذكير بالعمل الذى خلقنا من أجله ، إنها مناشدة لأبناء آدم أن يعرفوا الصراط المستقيم ويثبتوا عليه ، وأن يحذروا السبل المعوجة وينأوا عنها .

عندما يقول المؤذن : «الله أكبر الله أكبر» . ويؤكدها فكأنه يقول للإنسان : لاتدر حول نفسك واذكر من رباك وسواك ، واجعله غايتك من مسعاك ، يبارك لك فى وقتك وجهدك ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾(١) .

وعندما يقول : «أشهد أن لا إله إلا الله» ويكررها مرة أخرى ، فكأنه يقول للإنسان : لا تخش آلهة أخرى فى الأرض ، الأمور كلها صائرة إليه وحده ، يبت فيها ولا راد لحكمه ، لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ، فانتصب عزيز النفس رفيع الرأس ، واذهب لتسجد لله ، فإنك لن تذل بعده لأحد!

وعندما يقول : «أشهد أن محمدًا رسول الله» ويكررها مرة أخرى ، فهو يرسم أمام بصيرتك صورة الكمال الإنسانى لتقتدى به وتقتفى آثاره ، محمد وحده الأسوة الحسنة فى الإيمان والتقوى والخلق والاستقامة . .

وعندما يقول : «حى على الصلاة» ويكررها مرة أخرى فهو يدعوك لتتشرف بالمثول بين يدى ربك كى تسبح بحمده وتستزيد من رفده وتشترك مع إخوان العقيدة فى التجمع عليه والتحاب فيه . .

وعندما يقول : «حى على الفلاح» ويؤكدها مرة أخرى فهو يدلك على الجهد المثمر والسعى الناجح ، فما أكثر الذين يزرعون ولايحصدون ، أو يمشون ولا يصلون! أما أهل الصلاة فلا يضيعون ، ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(٢) .

(١) الشورى : ٢٠ . (٢) الحج : ٥٤ .

وعندما يقول مرة ثالثة : «الله أكبر الله أكبر» فهو يؤكد الغاية الصحيحة من الحياة والكدح طول العمر ، إن المرء يخرج من بيته لعمله ، وليحصل ما يقدر عليه من نفع لنفسه وأهله ، وصيحة التكبير التى يسمعها تهيب به أن يقصد ربه ، ويجعل له عمله ، وعندما يقدم نفسه لربه فسيجدها موفورة مقدورة ، أما من آثر نفسه ، فسيفقدها ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾(١) .

ويختم الأذان بصيحة التوحيد ، لإسقاط الوثنيات كلها ، إن العالم الآن لا ينحنى لصنم من حجر ، ولكنه يتفانى فى أصنام حية قامت شواخص مهيبة فى دنيا الحكم والمال ، وخافها الناس أكبر مما يخافون رب الأرباب .

إن كلمات الأذان منهج كامل ، ودعوة تامة ، مايمكن أن يغنى عنها بريق نار ، ولا رنين جرس ، ولا صفير بوق . . إنها هتاف من الملأ الأعلى ، يهيب بالبشر أن يرجعوا إلى أصلهم السماوى العريق .

هذه الكلمات نزلت من السماء ولم تخرج من الأرض ، استمع إليها نفر من الصحابة فى رؤى متقاربة ، وأحد الملائكة الكرام يهتف بها ، فى أعقاب مؤتمر تباحث فيه الصحابة مع الرسول ﷺ حول أمثل الطرق للدعوة إلى الصلاة! والحديث هنا يعود بنا إلى الإجابة السابقة ، وكيف كانت الملائكة تدنو من الأرض تستمع الذكر من تاليه وهو يناجى به ربه ، وتعود بنا إلى الأثر الروحى لمحمد فى أصحابه! . .

إن صحابيا أنكر نفسه لما أحس الفرق الشاسع بين حالته مع رسول الله وحالته بعد أن يخالط الأهل ويكابد هموم الرزق ، وظن أنه نافق بهذا التفاوت حيث إنه مع رسول الله ﷺ يكون منير القلب ، يتقلب فى مقام الإحسان ، وكأنه يشهد ربه ويحس جلاله! حتى إذا رجع إلى البيت والشارع والأهل والناس هبط ، واعتكر!! . .

قال له الرسول : «لو بقيتم على حالتكم معى لصافحتكم الملائكة! ولكن ساعة وساعة!» .

وكثير من الصحابة كان يستديم ساعات الإشراق التى تجمعه بصاحب الرسالة العظمى ، ويغالب إلى أمد طويل كثافة الطبع ، ومشاغل العيش ، وظلال الخلق! . .

جاء فى السنة عن أبى عمير بن أنس عن عمومة له من الأنصار قال : اهتم رسول الله ﷺ بالصلاة : كيف يجمع الناس لها ؟ فقيل له : انصب راية عند حضور الصلاة! فإذا رأوها آذن بعضهم بعضًا ، فلم يعجبه ذلك! . .

---

(١) الحشر : ١٩ .

فذكر له شبور اليهود ـ البوق الذى ينفخون فيه للإعلام بصلاتهم ـ فلم يعجبه ذلك وقال : هذا من أمر اليهود! فذكر له الناقوس ، فقال : هذا من أمر النصارى! . .

فانصرف عبدالله بن زيد الأنصارى ، وهو مهتم لهمّ رسول الله ﷺ ، فأرى الأذان فى منامه .

وفى تفصيل آخر يذكر الراوى أن رجلا من الأنصار جاء فقال : يارسول الله ، إنى لما رجعت ـ إلى بيتى ـ لما رأيت من اهتمامك رأيت رجلا كأن عليه ثوبين أخضرين فقام على المسجد فأذن ، ثم قعد قعدة ثم قام فقال مثلها ، إلا أنه يقول : قد قامت الصلاة! . .

ولولا أن يقول الناس لقلت : إنى كنت يقظان غير نائم! . . فقال رسول الله : لقد أراك الله خيرًا ، فمر بلالا فليؤذن! .

فقال عمر بن الخطاب : أما أنى قد رأيت مثل الذى رأى ، ولكنى لما سبقت استحييت ، وقال فيه فاستقبل ـ الملك الذى رآه عمر ـ القبلة وقال : الله أكبر الله أكبر مرتين أشهد أن لا إله إلا الله مرتين ، أشهد أن محمدًا رسول الله مرتين ، حى على الصلاة مرتين ، حى على الفلاح مرتين الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله ، ثم أمهل هنيهة ، ثم قام فقال مثلها ، إلا أنه زاد بعد ما قال حى على الفلاح قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة ، فقال رسول الله ﷺ : لقنها بلالا! فأذن بها بلال .

وكان بلال ندى الصوت ، عذب الأداء ، وتتفاوت الروايات تفاوتًا قليلاً فى عدد الألفاظ مع اتفاقها جميعًا فى أصل القصة ومصدر التلقى . .

وعندما أتجرد من التأثر بكل مايروى ، أرانى أميل إلى سماع الأذان ومتابعة كلماته الهادية ، فإنى أحب أن أقاد من عقلى لا من أذنى! إن الأذان يوقظ فؤادى ، ويعرفنى بربى على نحو ينسجم مع الفطرة السليمة .

ومن ثم استحب الشارع لسامعى الأذان أن يرددوا كلماته ، ويغرسوها فى مشاعرهم ، عن أبى هريرة رضي الله عنه قال كنا مع رسول الله ﷺ ، فقام بلال ينادى ـ للصلاة ـ فلما سكت قال رسول الله : «من قال مثل هذا يقيناً دخل الجنة» ، وعن سعد بن أبى وقاص أن رسول الله ﷺ قال : «من قال حين يسمع المؤذن : وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، رضيت بالله رباً ، وبمحمد رسولا ، وبالاسلام دينا ، غفر له ذنبه» .

وعن جابر أن رسول الله ﷺ قال : «من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته إلا حلت له شفاعتى» .

والمرء عندما يتأمل فى كلمات الأذان يجدها خلاصات للرسالة الإسلامية ، ووصفًا لله قائمًا على الحق المطلق ، الحق الذى لايتغير بين مشرق ومغرب! . .

ماذا وراء تكبير الله وتوحيده والنداء الدائب لعبادته؟ .

إن هذا لنداء يتنقل على سطح الأرض ، عابرا خطوط الطول فوق البر والبحر . مصاحبًا الأرض فى دورانها حول أمها الشمس «ووظيفة محمد العظمى تلبية الأمر الصادر إليه» ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾[1] .

إن الكون كله لا الأرض وحدها يتجاوب مع أصوات المؤذنين وهى تهيب بالبشر أن يهرعوا لمرضاة الله! . .

وليس بغريب أن يطلب من سامعى الأذان ـ وصداه لايزال يرن فى آذانهم ـ أن يدعوا للإنسان العظيم الذى يقودهم إلى الله ، ويؤمهم على الصراط المستقيم! إنه والله جدير بالدعاء المستديم أن يرفع الله درجته ، ويجزيه عن المسلمين خيرًا . .

على أن رؤى البشر مهما صلحت حالهم لاتكون مصدر وحى ، ولا دليل ، ولولا أن رؤيا الأذان أقرها النبى ﷺ ووافق على العمل بها ، ما التزم العمل بها أحدا! .

ولعل الله سبحانه وتعالى أراد طمأنة نبيه على أن رسالته قد نجحت فى تكوين جيل نقى الصفحة زكى السريرة يلتقى بالملأ الأعلى ، فيسمع منهم وينقل عنهم ، وقد قلنا فى إجابة سابقة : إن الملائكة تتنزل على المؤمنين المستقيمين فتلهمهم الرشد ، وتساند على الحق ، وتقذف فى قلوبهم بالبشريات ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾[2] .

لكن باب الأوهام والمزاعم لابد من سده فما يقبل كلام عن عالم الغيب إلا من المعصوم وحده! والمسلمون مجمعون على أن الشريعة ، لا منبع لها إلا الكتاب والسنة .

وقد ظهر فى عصرنا هذا فلاحون اقتحموا ميدان التدين وزعموا أن وحيا يجيئهم ، وخير علاج لهم أن يقادوا إلى تبليغه فى مستشفيات الأمراض العقلية . .

(١) طه : ١٣٠ . (٢) فصلت : ٣٠ .

٧٦. ما حقيقة الصوم وما حكمته؟

الصيام عبادة مستغربة أو منكورة فى جو الحضارة المادية التى تسود العالم . إنها حضارة تؤمن بالجسد ولا تؤمن بالروح ، وتؤمن بالحياة العاجلة ولا تكترث باليوم الآخر! ومن ثم فهى تكره عبادة تقيد الشهوات ولو إلى حين ، وتؤدب هذا البدن المدلل وتلزمه مثلا أعلى . .

إن الأفراد والجماعات فى العالم المعاصر تسعى لا غير لتكثير الدخل . . ورفع مستوى المعيشة ولا يعنيها أن تجعل من ذلك وسيلة لحياة أزكى ! . .

ونسارع إلى تبرئة الدين من حب الفقر ، وخصومة الجسم ، فالغنى سر العافية والجسم القوى نعم العون على أداء الواجب والنهوض بالأعباء ، وإنما نتساءل : هل يتعامل الناس مع أجسامهم على أسلوب معقول يحترم الحقائق وحدها؟

يقول علماء التغذية : إن للطعام وظيفتين : الأولى إمداد الجسم بالحرارة التى تعينه على الحركة والتقلب على ظهر الأرض ، والأخرى تجديد مايستهلك من خلاياه وإقداره على النمو فى مراحل الطفولة والشباب .

حسنا ، هل نأكل لسد هاتين الحاجتين وحسب؟ إن أولئك العلماء يقولون : يحتاج الجسم إلى مقدار كذا من «السعر الحرارى» كى يعيش . .

الطعام وقود لابد منه للآلة البشرية ، والفرق بين الآلات المصنوعة والإنسان الحى واضح . . فخزان السيارة مصنوع من الصلب ليسع مقدارًا معينًا من النفط يستحيل أن يزيد عليه ، أما المعدة فمصنوعة من نسيج قابل للامتداد والانتفاخ يسع أضعاف مايحتاج المرء إليه ! . .

وخزان السيارة يمدها بالوقود إلى آخر قطرة فيه ، إلى أن يجىء مدد آخر . .

أما المعدة فهى تسد الحاجة ثم يتحول الزائد إلى شحوم تبطن الجوف ، وتضاعف الوزن ، وذاك ما تعجز السيارة عنه ، إنها لاتقدر على أخذ «فائض» ولو افترضنا فإنها لاتقدر على تحويله إلى لدائن تضاف إلى الهيكل النحيف فيكبر أو إلى الإطارات الأربعة فتسمن!! . .

الإنسان كائن عجيب ، يتطلع أبدًا إلى أكثر مما يكفى ، وقد يقاتل من أجل هذه الزيادة الضارة ، ولا يرى حرجًا أن تكون بدانة فى جسمه ، فذلك عنده أفضل من أن تكون نماء فى جسد طفل فقير ، أو وقودًا فى جسد عامل يجب أن يتحرك ويعرق!!

كان لى صديق يكثر من التدخين ، نظرت له يومًا فى أسف ، ثم سمعنى وأنا أدعو الله له أن يعافيه من هذا البلاء ، فقال رحمه الله فقد أدركته الوفاة (اللهم لاتستجب ولا تحرمنى من لذة «السيجارة») . .

ولم أكن أعرف أن للتدخين عند أصحابه هذه اللذة ، فسكت وقد عقدت لسانى دهشة .

إن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذى يعرف ما يضره ، ويقبل عليه برغبة . . إنها الرغبة القاتلة!! . .

على أن النفس التى تشتهى مايؤذى يمكن أن تتأدب وتقف عند حدود معقولة ، كما قال الشاعر قديمًا :

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع

وهنا يجىء أدب الصيام! إنه يرد النفس إلى القليل الكافى ، ويصدها عن الكثير المؤذى! . .

ذاك يوم نصوم حقا ، ولا يكون الامتناع المؤقت وسيلة إلى التهام مقادير أكبر كما يفعل سواد الناس!! . .

لعل أهم ثمرات الصوم إيتاء القدرة على الحياة مع الحرمان فى صورة ما . .

كنت أرمق النبى ﷺ وهو يسأل أهل بيته فى الصباح : «أثم مايفطر به؟» فيقال : لا ! فينوى الصيام ، ويستقبل يومه كأن شيئًا لم يحدث . .

ويذهب فيلقى الوفد ببشاشة ويبت فى القضايا ، وليس فى صفاء نفسه غيمة واحدة! وينتظر بثقة تامة رزق ربه دونما ريبة ، ولسان حاله ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾(١) . .

قلت : لو جاءنى فطورى دون شاى لسخطت!! ولرفضت إمضاء ورقة على مكتبى ، بل كتابة مقال!! . .

(١) الشرح : ٥ ، ٦ .

إنها لعظمة نفسية جديرة بالإكبار أن يواجه المرء البأساء والضراء مكتمل الرشد ، باسم الثغر ، والأفراد والجماعات تقدر على ذلك لو ـ شاءت! .

وأعتقد أن أسباب غلب العرب فى الفتوح الأولى قلة الشهوات التى يخضعون لها ، أو قلة العادات التى تعجز عن العمل إن لم تتوافر .

يضع الواحد منهم تمرات فى جيبه وينطلق إلى الميدان ، أما جنود فارس والروم فإن العربات المشحونة بالأطعمة كانت وراءهم ، وإلا توقفوا . .

وقد اعتمد غاندى على هذا السلاح عندما حارب «بريطانيا» العظمى . . كان الإنتاج البريطانى يعتمد على الاستهلاك الهندى . . وقرر غاندى أن ينتصر بتدريب قومه على الاستغناء ، نلبس الخيش ولا نلبس منسوجات «مانشيستر» نأكل الطعام بدون الملح مادامت الدولة تحتكره ، نركب أرجلنا ولا نركب سياراتهم . .

وقاد حركة المقاطعة رجل نصف عار جائع ، ينتقل بين المدن والقرى مكتفيا بكوب من اللبن . .

واستجابت الجماهير الكثيفة للرجل الزاهد ، وشرعت تسير وراءه فإذا الإنتاج الإنكليزى يتوقف ، والمصانع تتعطل ، وألوف مؤلفة من العمال الإنجليز يشكون البطالة . .

واضطرت الحكومة إلى أن تطلب من «غاندى» المجىء إلى لندن كى يتفاوض معها ، أو يملى شروطه عليها!! . .

وحياه أحمد شوقى وهو ذاهب إلى لندن بقصيدته التى يقول فيها محذرًا من ألاعيب الساسة . .

وقل هاتوا أفاعيكم أتى الحاوى من الهند..

إن الإنسان الذى يملك شهواته قوة خطيرة ، والشعب الذى يملك شهواته قوة أخطر ، فهل نعقل؟؟ . .

فى صيام غاندى وأثر سياسته على إنجلترا ، وظفره باستقلال الهند يقول الشاعر القروى سليم خورى :

لقد صام هندى فجوع دولة..
وما ضار علجا صوم مليون مسلم
تجشم عن أوطانه صوم عامد
مجشم أوطان العدا صوم مرغم!

وخلى بلاد الظالمين بلاده
تضيق بجيش العاطلين العرمرم
وألقى على «مانشيستر» ظل رهبة
تضج بأشباح الشقاء المخيم..
أهاب بآلات الحديد فعطلت
مصانع كانت جنة المتنعم..
وشل دواليب الرخاء بصرخة
أدارت دواليب القضاء المحتم
كساها نسيج العنكبوت وكم كست
جسوم البرايا بالقشيب المنمنم
تهدمها أسرار نفس عجيبة
تجول بذلك الهيكل المتهدم
فيالك من عار، لديه تصاغرت
جبابر أبدان، وعقل ودرهم!!
وراحت ملوك المال تشكو ببابه
من الظلم، يالظالم المتظلم!!

وفى عيد الفطر يقول رشيد سليم خورى أيضًا :

أكرم هذا العيد تكريم شاعر ... يتيه بآيات النبى المعظم
ولكن أصبو إلى عيد أمة ... محررة الأعناق من رق أعجم

أحفظ للشيخ الكبير «محمد الخضر حسين» شيخ الأزهر الأسبق كلمة عظيمة : «لست أنا الذى يهدد ، إن كوبا من اللبن يكفينى أربعًا وعشرين ساعة»! . .

ومن قبله قال الشيخ عبد المجيد سليم وقد حذروه من غضب جهات عالية : «أيمنعنى ذاك من التردد بين بيتى والمسجد؟ قالوا : لا . . قال : لا خطر إذن! ليس هناك ما يخاف» . .

من أركان العظمة أن يجعل الرجل مآربه من الدنيا فى أضيق نطاق مستطاع . . إنه يعنى عدوه بتلك الاستعفاف أو الاستغناء .

وذلك نهج الشرف الذى خطه على بن أبى طالب عندما قال : «استغن عمن شئت تكن نظيره ، واحتج إلى من شئت تكن أسيره» . . وما يستقيم على هذا النهج إلا امرؤ يحسن الصيام .

أعجبتنى هذه الوصية لأبى عثمان النورى لابنه ، وأثبتها الجاحظ ، وليس لى فى كتابتها إلا فضل النقل . . «يابنى كل مماليك ، واعلم أنه إذا كان فى الطعام لقمة كريمة أو شيء مستطرف فإنما ذلك للشيخ المعظم أو الصبى المدلل ، ولست واحدا منهما .

يابنى عوِّد نفسك مجاهدة الهوى والشهوة ، ولا تنهش نهش السباع ، ولا تخضم خضم البغال ، ولا تلقم لقم الجمال ، الله جعلك إنسانا فلا تجعل نفسك بهيمة ، واعلم أن الشبع داعية البشم ، والبشم داعية السقم ، والسقم داعية الموت .

ومن مات هذه الميتة فقد مات ميتة لئيمة ، لأنه قاتل نفسه ، وقاتل نفسه ألأم من قاتل غيره . .

يابنى والله مـا أدى حق الركوع والسجود ممتلئ قط! ولا خشع لله ذو بطنة ، والصوم مصحة ، والوجبات عيش الصالحين .

يابنى قد بلغت تسعين عامًا ما نقص لى سن ولا انتشر لى عصب ، ولا عرفت ذنين أنف ، ولا سيلان عين ، ولا سلس بول ، وما لذلك علة إلا التخفف من الزاد . .

فإن كنت تحب الحياة فهذه سبيل الحياة ، وإن كنت تحب الموت فتلك سبيل الموت ، ولا أبعد الله غيرك» . .

هذه وصية رجل لايعرف عبادة الجسد التى تهاوى فيها أبناء هذا العصر ، والتى جاء فيها قوله تعالى :

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾(1) .

وقوله :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾(2) .

(1) الحجر : ٣ . (2) محمد : ١٢ .

وتجتاح الناس بين الحين والحين أزمات حادة تقشعر منها البلاد ، ويجف الزرع والضرع ، ما عساهم يفعلون؟ إنهم يصبرون مرغمين أو يصومون كارهين وملء أفئدتهم السخط والضيق . . وشريعة الصوم شيء فوق هذا ، إنها حرمان الواجد ، ابتغاء ما عند الله . إنها تحمل للمرء منه مندوحة - لو شاء - ولكنه يخرس صياح بطنه ، ويرجئ إجابة رغبته ، مدخرًا صبره عند ربه ، كيما يلقاه راحة ورضا فى يوم عصيب . . ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾[1] .

وربط التعب بأجر الآخرة هو ما عناه النبى ﷺ فى قوله : **«من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه»! . .**

إن كلمتى «إيمانًا واحتسابًا» تعنيان جهدًا لا يستعجل أجره ، ولا يطلب اليوم ثمنه ، لأن باذله قرر حين بذله أن يجعله ضمن مدخراته عند ربه . . نازلا عند قوله :

﴿ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا ﴾[2] .

وسوف يجد الصائم مفطرين لا يعرفون لرمضان حرمة ولا لصيامه حكمة ، إذا اشتهوا طعامًا أكلوا ، وإذا شاقهم شراب أكرعوا . . ماذا يجدون يوم اللقاء؟ . .

إنهم يجدون أصحاب المدخرات فى أفق آخر ، مفعم بالنعمة والمتاع ، ويحدثنا القرآن الكريم عمن أضاعوا مستقبلهم فيقول :﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾[3] .

إن الصيام عبادة مضادة لتيار الحياة الآن ، لأن الفلسفات المادية المسيطرة فى الشرق والغرب ، تعرف الأرض ولا تعرف السماء ، تعرف الجسم ولا تعرف الروح ، تعرف الدنيا ولا تعرف الآخرة . .

ليكن للقوم ما أرادوا ، ذلك مبلغهم من العلم! . . بيد أننا نحن المسلمين يجب أن نعرف ربنا ، وأن نلزم صراطه ، وأن نصوم له ، وأن ندخر عنده! .

على أن هناك حقيقة مؤسفة هى أن الصوام قلة وإن امتنع عن الطعام كثيرون! . .

(١) هود : ١٠٣ . (٢) النبأ : ٣٩ .
(٣) الأعراف : ٥٠ ، ٥١ .

٧٧. فى المجالات الاجتماعية والسياسية نرى للإسلاميين مقالات متباعدة أو متناقضة! فلم هذا؟

أعترف بأن الملاحظة صادقة ، وأشعر بأن بقاء هذا الوضع يعوق الدعوة ويحرج الدعاة! وسأذكر هنا ما أراه باعثًا على هذا الاضطراب ، حتى يمكن تجاوزه . .

إن الإسلام صراط مستقيم وقد خرجت من هذا الصراط طرق شتى تميل يمنة أو يسرة! وكان اعوجاجها بارزًا كذلك فى المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . وكان بارزًا كذلك فى النواحى المدنية والحضارية . . وقد خيل إلىَّ أن الصراط المستقيم خلا من أهله فى العصر الأخير ، وتزاحمت القوافل الشاردة فى مسالكها التى انطلقت فيها ، ومن هنا استوحش الحق ، وأصابه ضر شديد . .

وسأختار نموذجين لهذا الشرود ، ولنتائجه فى عالم المعرفة والتوجيه . .

يعرف الإسلام أمير المؤمنين على أنه وليد بيعة حرة ، أو اختيار صحيح يتجه فيه الناس إلى انتخاب أكفأ إنسان لقيادتهم ، ويعرف القائد المنتخب أن الحكم أمانة ومسئولية جسيمة ، وأنه تكليف لا مغنم ، وأن عليه الاستعانة بأهل الشورى فى تعرف الصواب وتحديد الأرشد ، وأنه ليس بمعصوم ولا مستغن بنفسه بل يحتاج إلى مظاهرة الأقوياء والانتفاع بشتى الآراء ، وأنه إذا أخطأ وجب تقويمه ، وإذا عجز ترك للأمة أن تختار غيره فليست الرياسة حقًا شخصيًا له أو لغيره . .

هذه مسلَّمات فى أصول الحكم كما يعرفها الإسلام ، وهذا هو الصراط المستقيم .

لكن خط الانحراف الذى بدأ من عهد مبكر ، جعل الخلافة اغتصابًا وميراثًا ، وجعل الحصول عليها مغنما لا مغرما ، وتوسيت أجهزة الشورى حتى لكأنها وهم أو أسطورة ، واقترب من الحاكم أهل الملق وابتعد رجال الحق ، أو أبعدوا ، واعتبروا النقد الصحيح فتنة أو خروجًا ، واعتبرت المداهنة طاعة وولاء!

من حقى أن أصف الثقافة التى تنظر إلى الصراط المستقيم وهى تتحدث عن الإسلام - بأنها الثقافة الأصلية ، كما أن من حقى أن أصف الثقافة التى قبلت الواقع وبنت عليه وأفتنت به ثقافة خط الانحراف! . .

التوجيهات القرآنية والنبوية وتطبيقات سلفنا الصالح هى الثقافة الأصلية ، أما الواقع الذى رسمه الملوك . ونضحت به طبيعة جنس من الأجناس ، فهو علم متأثر بخط الانحراف .

وهذا العلم لايفرضه على الإسلام عاقل ، مهما حاول أهله إعطاءه الصيغة الإسلامية ، فالقول بأن الشورى لاتلزم الحاكم ، والقول بأن الانتخاب بدعة ، والزعم بأن نقد الحاكم نقض للبيعة ، وأن على الجمهور أن يصبر على غصب المال ، وضرب السياط . . إلخ ، كل ذلك من وحى خط الانحراف وليس من معالم الصراط المستقيم .

والعرب جنس له محامده ومعايبه ، ومن معايب العرب العصبية للأسرة ، والتعالى بالنسب ، وحب السلطة والحرص على الإمارة! وقد جعلوا منصب الخلافة يحمل معالم شيخ القبيلة ، الذى يقول فيسمع ويأمر فيطاع! . .

وأرى أن هذه الخصال السيئة فى طلب الحكم ، والتصدير بالدعوى أساءت قديمًا للإسلام وتسيء يومنا هذا للعرب .

والفقهاء الناصحون ، لله ورسوله ، يفصلون بين طبيعة جاهلية فرضت نفسها ، ودين قويم يجب أن يسود .

وقد ألف عبد الرحمن الكواكبى كتابه «طبائع الاستبداد» لينصف الإسلام ممن حكموا باسمه وكذبوا عليه ، وفيه يقول : «المستبد يتحكم فى شئون الناس بإرادته لا بإرادتهم ، ويحكم بهواه لا بشريعتهم ، ويعلم من نفسه أنه الغاصب المعتدى فيضع كعب رجله على أفواه الألوف المؤلفة ، يَسدها عن النطق بالحق ومطالبتها به! والمستبد يود أن تكون رعيته بقرا تحلب ، وكلابا تتذلل ولاتتملق! وعلى الرعية أن تدرك ذلك فتعرف مقامها منه! هل خلقت خادمة له؟ . أو هى جاءت به ليخدمها فاستخدمها؟ والرعية العاقلة مستعدة أن تقف فى وجه الظالم المستبد تقول له : لا أريد الشر! ، ثم هى مستعدة لأن تتبع القول بالعمل ، فإن الظالم إذا رأى المظلوم قويا لم يجرؤ على ظلمه»[1] .

ومن الحكام من يحاول استجلاب صورة للشورى بها شبه من «ديمقراطية» الغرب! شبه التمثال الميت بالجسد الحى ، قال الشيخ محمد عبده فى وصفها :

(١) الإصلاح لأحمد أمين .

«لو حدث أن إنسانًا عرض وجهة نظر غير مايرى الحاكم لتعرض للتلف ، فإن أمام كل لفظ يقوله نفيًا عن الوطن أو إزهاقًا للروح أو تجريدًا من المال»!

والواقع أن المستبدين فى كثير من الأقطار الإسلامية برعوا فى تزوير الشورى ، عندما ألجأتهم الظروف إلى مجالسها ، حتى أمست الجماهير بين استبداد صريح أو استبداد منافق !!

إن حقوق الإنسان وحقوق الشعوب هى الوجه المقابل فى ديننا لعقيدة التوحيد ، وأحسب أن سدنة الوثنية السياسية لايقلون شراً ولا أذى عن سدنة الأصنام .

وهؤلاء للأسف يجيدون تحريف الكلم عن مواضعه وتطويع النصوص لخدمة السلاطين . .

وهناك نموذج آخر لطغيان التقاليد الموروثة على تعاليم الإسلام! . .

كان العرب فى جاهليتهم يكرهون الأنثى ويتشاءمون لولدها ، وقد اشتطت بهم هذه الكراهية حتى حملتهم على اقتراف جريمة لم تعرف فى جنس آخر ، جريمة وأد البنات ، ولست أدرى : أذلك خشية العار كما يزعمون! أم هو إحياء دينى ضال؟ كما يفهم من الآية الكريمة :

﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾[1] .

ليكن هذا أو ذاك ، لقد جاء الإسلام فبدل الأحوال ، وكرم الأنثى وأوصى بالبشاشة عند مولدها ، ورعاها طفلة وفتاة وأمًا . . وأعطاها فى المجتمع حق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وفى العبادة حق التردد على المسجد من الفجر إلى العشاء ، وفى التعليم ماتكمل به إنسانيتها فلم يقصرها على نصيب محدود! . .

وكان أن علا شأن المرأة ، فبايعت ، وجاهدت ، وحققت لنفسها مايشرف نوعها ، وظفرت المسلمة بما تظفر به امرأة أخرى! . .

ثم غلبت تقاليد الجاهلية العربية شيئًا فشيئًا حتى أقبل العصر الحاضر ، والمرأة محظور عليها أن تدخل مسجدًا (!) فى أغلب العواصم ـ خصوصًا المحافظة ـ أما حق التعليم فإنه لولا الحضارة الحديثة مادخلت أنثى مدرسة ولا انتمت طالبة إلى جامعة ، كأن تجهيلها فرض محتوم! . .

(١) الأنعام : ١٣٧ .

وانكمشت إنسانية المرأة حتى كاد ميراثها يجتاح كله ، وحتى أصبح إذنها فى عقد الزواج شكلا لا حقيقة له ، وإذا اقترفت فاحشة قتلت ونجا الطرف الآخر . .

والقاعدة العامة أنها لاترى أحدا ولايراها أحد ، وخط الانحراف فى هذه المسألة أساء ولايزال يسىء إلى الإسلام ، ويضع العوائق أمام دعوته! . .

هذا لون من العلم الذى أشاعه خط الانحراف فى تاريخنا وثقافتنا ، وهو علم لايعنى بعض المتدينين غيره! إذا وجدوا فى الميدان السياسى أنه لا شورى ، ولا أجهزة لها ، ولا ضوابط للحكم الفردى ، نسوا النصوص المهملة ، وأخذوا صورة الإسلام من الواقع السيئ . .

وإذا وجدوا أن المرأة كم مهمل ، وأنه لا مكان لها فى مدرسة أو مسجد ، وأنه لايجوز أن ترى أحدًا أو يراها أحد ، تجاوزوا القرآن والسنة ، وحكموا على المرأة بالإعدام الأدبى! .

وقد رأيت هؤلاء يختلقون الأحاديث ، أو يقوون الضعيف منها أو يهملون الصحيح لتغير الزمان ، ويحدث هذا كله فى وقت تعمل فيه المبشرات من كل ملة على تنصير المسلمين ، بل إن المجندات فى الجيش اليهودى يسبقن الرجال عندنا فى صناعات الموت[1] .

إننا نحذر الأمة من العلم الدينى المغشوش ومن فتانين يهدمون الحق ، على حين يبنى غيرهم الباطل . .

(١) وزع كتاب عن ضرورة ضرب النقاب على وجه المرأة المسلمة كى يتم إيمانها ويكمل دينها ومن بين ما قال مؤلفه : «حرم الإسلام الزنى ، وكشف الوجه طريق إليه ، فما أدى إلى الحرام حرام» : ونعجب نحن لهذا الاستدلال ، فإن الإسلام أوجب كشف الوجه فى الحج والعمرة ، وجعله الأساس عند أداء الصلوات كلها ، فهل كان الإسلام بهذا الكشف يمهد للفاحشة؟ ومن أغرب ما قرأت تعليق المؤلف على حديث المرأة الخثعمية التى رآها النبى ﷺ مكشوفة الوجه ، فلم يأمرها بتغطيته ، قال : لعل النبى أمرها بالنقاب . . فلم لم ينقل الرواة لنا ذلك؟! . .

٧٨. ما موقف الإسلام من اختلاط الجنسين؟

إذا ذكر الاختلاط ارتسمت فى الذهن الصورة الدميمة للعلاقات الاجتماعية بين الرجال والنساء كما استقرت فى الغرب ، والحق أن هذه العلاقات سيئة ، وأن وضع المرأة هناك لايرتضيه دين! . .

إن التبرج ، وإبداء الزينات الباطلة هما أساس الملابس العادية ، وكأن سرور المرأة لايتم إلا إذا أثارت الانتباه ولفتت إليها الأنظار! . .

ثم حشرت النساء فى أعمال شتى تتيسر فيها الخلوة ، وتعجز المرأة الشريفة فيها عن التصون! بل إن الحضارة الغربية فى إباحتها للرقص ، واستباحتها لإرواء اللذات بسبل كثيرة ، أرخصت قيمة الأسرة ، وجعلت الزواج محدود الأثر فى حماية الأعراض ، وقصر كلا الزوجين على صاحبه! . .

وقد نتساءل عن مكانة الدين فى هذه الجاهلية السائدة؟ إن اليهودية مشغولة بتهويد فلسطين وقتل العرب ، والنصرانية مشغولة بالحملات الصليبية على بلاد الإسلام ، وتيسير الارتداد عنه بكل طريقة! . .

أما حقيقة التدين بالنسبة إلى الجماهير فلا تعدو أيام العطلة والأعياد السنوية . .

وإن كان هناك من بقى على تدينه ، وواءم بين مايعرف وما يرى! . .

إن الحضارة البشرية السائدة فى العالم اعتبرت اللذات الجسدية حقوقًا طبيعية ، ولم تر فى الاعتراف بها ما ينافى الأخلاق ، ووجهت نشاطها بعد ذلك إلى الميادين العملية ، من مدنية وعسكرية ، وسبقت سبقًا بعيدًا . .

أما الأمة الإسلامية فإنها لم تسر مع فطرة الإسلام المقررة ، ووضعت أمام الزواج عقبات اقتصادية واجتماعية صعبة ، وأنشأت تقاليد صارمة فى إمكان رؤية كلا الجنسين للآخر ! . .

وعند التأمل نجد هذه التقاليد مبنية على الرياء ، والجهل ، والكبرياء المزعومة لبعض الأعراق ، ثم دعوى التدين! .

وعندى أن تقاليد الغرب إذا وصفت بأنها لاشرف لها ، فإن التقاليد الشرقية لا عقل لها ، الأولى فاضحة والأخرى فادحة وضحايا التقاليد المرعية هنا وهناك ، كثيرة ومتشابهة! . .

فلننظر إلى تقاليد الإسلام كما تعرف من مصادره ، ومن تطبيقات سلفه الأول! . .

لا كما يزعمها أشخاص درسوا خط الانحراف ، ورأوا أن يئدوا المرأة معنويا إذا كان آباؤهم قد وأدوها ماديًا . .

المرأة فى الإسلام تقدر على التردد خمس مرات كل يوم بين بيتها والمسجد ، ومتروك لضميرها ألا يكون ذلك على حساب خدمتها لزوجها وولدها ، ومتروك لرب البيت المؤمن ألا يمنعها من ذلك مادامت قد أدت واجبها نحو بيتها .

وفى المسجد لايختلط الحابل بالنابل ، فللرجال صفوفهم وللنساء صفوفهن! والنساء سوافر أى مستورات الأجسام ماعدا الوجه والكفين ، هل يسمى هذا اختلاطًا؟ . . إن الرؤية ممكنة فى المسجد ، وفى أثناء التردد عليه! لكن أى رؤية؟ مع غض البصر! وأدب النفس ، فإذا رأى رجل محاسن امرأة لم يعاود النظر ليتملى ، فذلك مرفوض ، له النظرة الأولى وليس له الثانية! .

إن هذه الرؤية العابرة من أحد الجنسين للآخر لاشىء فيها شرعًا ، وإن جادل المجادلون! . .

والشارع الإسلامى تسير فيه المرأة محتشمة على ما وصفنا تذهب إلى السوق ، أو المدرسة أو إلى المسجد دون حرج!

ولنفرض أن رجلاً مر بجمع من النسوة فألقى عليهن السلام ، إنه لم يرتكب إثمًا فقد صح عن أسماء بنت يزيد قالت : **مر علينا رسول الله ﷺ فى نسوة، فسلم علينا، وفى رواية للترمذى فألوى يده بالتسليم!** . .

وقد خرجت صحابيات مع الجيش ـ فى نطاق الاحتشام الذى وصفنا ـ وكن يطهين الطعام ، ويمرضن الجرحى ، وينقلن الموتى ، وكافأهن الرسول ﷺ ببعض الهدايا . .

ووقفت مليا عند حديث رواه البخارى ، أضعه بين أيدى المؤمنين ليروا فيه بعض معالم المجتمع الأول ، عن أبى جحيفة ﷺ قال : **آخى رسول الله بعض [بين سلمان وأبى الدرداء رضى الله عنهما، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذلة. أى رأى ثيابها ردينة الهيئة. فقال: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة فى الدنيا!!** . .

فجاءه أبو الدرداء فصنع له طعامًا ، وقال له : كل.. **فقال: إنى صائم! فقال سلمان: ما أنا بآكل حتى تأكل، فأكل!...وترك صومه. فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم.. قال له سلمان: نم! فنام** . .

فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قم الآن، فصليا فقال له سلمان: إن لربك عليك حقا، وإن لنفسك عليك حقا ولأهلك عليك حقا، فأعط كل ذى حق حقه! فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «صدق سلمان» .

قلت فى نفسى : إن البيئة التى يصنعها خط الانحراف ترى فى سؤال سلمان لأم الدرداء جريمة ، وترى فى إجابة أم الدرداء جريمة أشد ، وربما عالجت هذا بضرب تزهق فيه الروح أو يترك عاهة مستديمة! .

ولا أدرى كيف يتم الزواج فى هذه المجتمعات المغلقة؟ يكاد يكون نوعًا من المقامرة! ومن أجل ذلك عرف العرب فى عواصم أوربا وأمريكا بالسعار الجنسى ، وغلقت بيوت لا تحصى على آلاف العوانس! والسبب فى ذلك تقاليد فرضها العرب من عند أنفسهم على المسلمين ما أنزل الله بها من سلطان .

لا أصف المجتمع المسلم بأنه منغلق أو منفتح ، إنه مجتمع طبيعى تحكمه تعاليم الفطرة السليمة وحدها . .

المجتمع المنغلق يرتاب فى حركات المرأة كلها ، ويفسرها بابتغاء الشر ، أو يخشى عليها ذلك ، ومن ثم فهو يحرم المباح ويضع السدود ، ويتناول النصوص بالتأويل ، أو يقوى الضعيف منها ويضعف القوى ، وينتهى بمحو شخصية المرأة .

والمجتمع المنفتح يضع عنان المرأة فى يدها ، ويحرض الذئاب على نهشها ، ويستغل اعترافه بشخصيتها كى يستغل ضعفها فى مبازله . .

وكلا المجتمعين شر! ولست أرى بديلاً عن تعاليم الإسلام يفهمها عقل طبيعى لاعقل ملتاث! . .

لقد رأيت رجلاً جامعياً متزمتًا يستغرب قوله تعالى :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾(١) .

كأنه لم يسمع الآية حتى ذكرتها له محتجا بها على أن المرأة تأمر وتنهى ، وتحق الحق وتبطل الباطل! كان يتصور أن صوت المرأة عورة ، فما يجوز لها أن تتكلم ناصرة حقا ، أو خاذلة باطلا . .

وقال لى شخص ممن يرون حجب المرأة عن المجتمع : أليس يقول الله :

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴾(٢) .

قلت : إن القرآن لايضرب بعضه بعضًا ، وتفسير الآية الكريمة على أن البيت سجن للمرأة لاتخرج منه تفسير باطل ، فإن الحديث الصحيح : «**إن الله أذن لكن أن تخرجن فى حوائجكن**» على أن خروج المرأة من بيتها لايجوز أن يكون مع تبرج الجاهلية القديمة أو الحديثة ، إن مكثها فيه أولى من هذا الخروج السيئ . .

وعندما تخرج ـ وهذا حقها يقينا ـ فإن آية أخرى أرشدتها إلى الهيئة التى تخرج بها! إن للاستعفاف ملابس سابغة تلف الجسد وتنفى الريبة ، وتنطق بأن هذه المرأة تقية نقية ، أما الملابس الخليعة المتبرجة التى تستفز الشهوات فهى تغرى السفلة ، وتشتم منها الذئاب رائحة معينة ، وعلى المسلمة الشريفة ألا تؤذى نفسها بهذه الملابس ، فإنها بثياب الفضيلة تحمى عرضها ، وتحصن نفسها ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾(٣) .

فى المجتمع المسلم لابد من تقوى تسكن القلوب ، وإقام للصلاة التى تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ومحافظة على حدود الله تملأ أكناف المجتمع بالعلامات الخضراء والحمراء ، على ما أمر الله وما نهى عنه . . فى هذا الجو تخرج المرأة للعمل إن

(١) التوبة : ٧١ . (٢) الأحزاب : ٣٣ . (٣) الأحزاب : ٥٩ .

احتاجت إليه أو احتاج العمل إليها ، ولها أن تقاتل فى البر والبحر كما فعلت قبل ذلك صحابيات ، وما يمنعها الإسلام من غزو الفضاء إذا أتاحت لها مواهبها ذلك! . .

فليست المرأة ـ بالإسلام ـ دون غيرها من أية ملة! . .

أعرف أشخاصًا يوغر صدورهم هذا الكلام ، إن هؤلاء المساكين أصابوا الإسلام فى مقاتله بقصورهم الشائن ، لقد كونوا جيلاً من النساء ما يحسن تربية أولادهن على حين تكافح اليهوديات بجلد مزعج لإقامة دولة إسرائيل ، وتكافح الراهبات لتحويل الألوف عن الإسلام . .

الواقع أننى أتشاءم من المستقبل عندما أسمع مفتين منسوبين إلى الإسلام لايزالون يحرمون على النساء دخول المساجد! . .

وأريد لفت الأنظار إلى العلاقات بين الجنسين قضية تالية لما هو أهم منها ، وهو غرس الإيمان الصحيح ، ثم إنضاج المعانى المبنية عليه من إخلاص وتوكل ورغبة ورهبة وولاء وبراء ، ثم إقامة الأخلاق الاجتماعية من صدق وبر ووفاء ورحمة! . .

فإن العلل النفسية الناشئة عن فقدان ما ذكرنا تهلك الأمم أكثر مما يهلكها الاضطراب الجنسى . . وأثر التحاقد بين العرب شر من أثر التحلل بين أعدائهم . .

ومن الحماقة أن يظن كشف الوجه أخطر من خبث القلب وحسد الغير ! . .